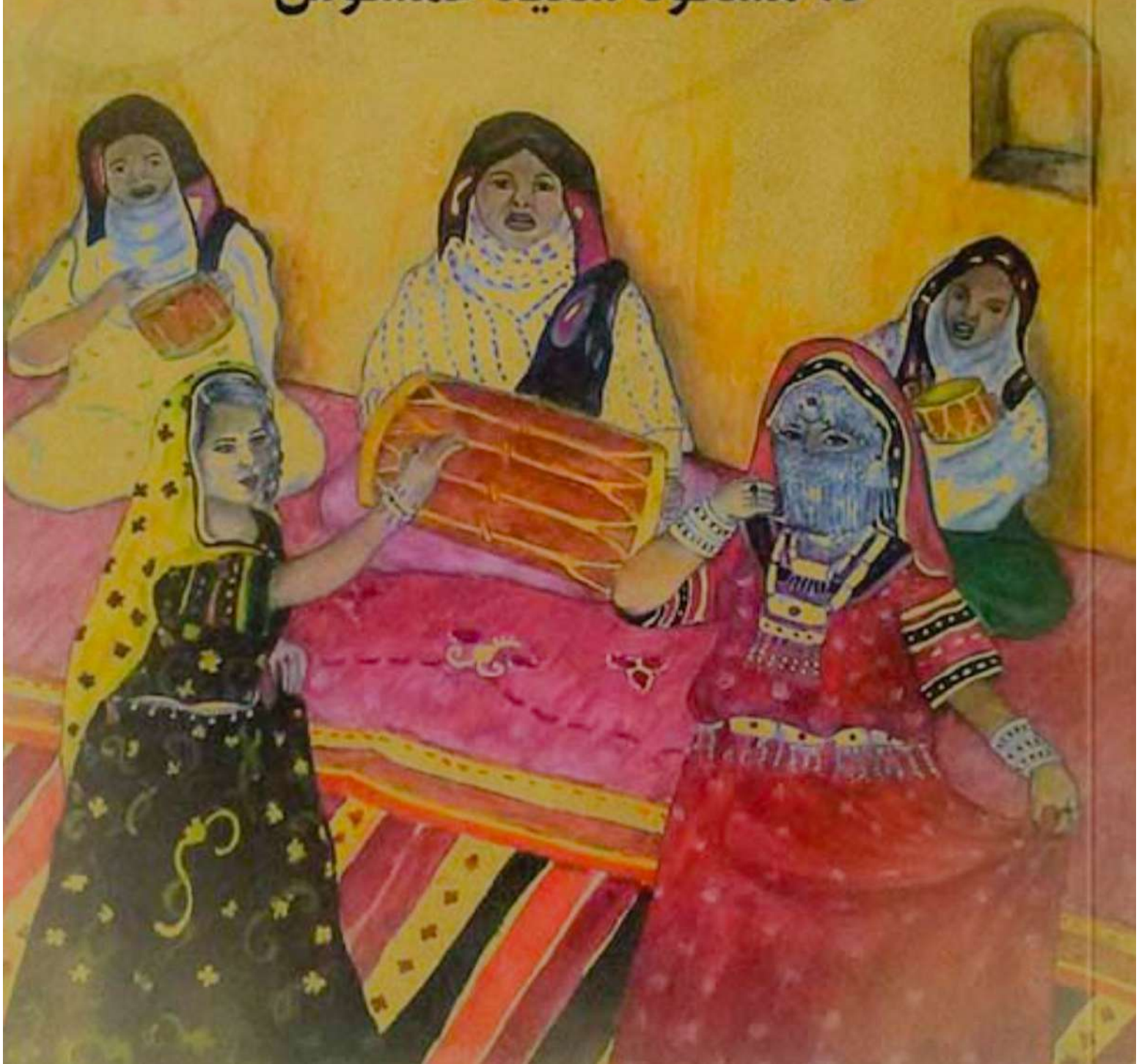
الشعر الشعبي النسوي في حضرموت

د. مسعود سعيد عمشوش



الشعر الشعبي النسوي

في حضرموت

مسعود سعيد عمشوش

أستاذ الأدب العام والمقارن – جامعة عدن

٢٠٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: ٢٠٢٢

رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب – حضرموت ٣٤٠/ ٢٠٢٢

العنوان: الشعر الشعبي النسوي في حضرموت

المؤلف: أ. د. مسعود سعيد عمشوش

المقاس: ١٤ × ٢١ سم

عدد الصفحات: ١٧٩

يمنع طباعة أو تصوير هذه المطبوعة أو أجزاء منها، أو حفظها أو نسخها على الوسائط الإلكترونية من غير موافقة مسبقة من المؤلف

مركز مهارات للتدريب والدراسات والترجمة والنشر

٧٧٧٧٢٥٧٥٣ mahaaratcentre@gmail.com

عدن

المحتويات

مقدمة	٥
١- الحبابة خديجة عليّة وشعرها الشعبي	٢٥
٢- نور قدرية والشعر الشعبي	٥١
٣- قراءة في ديوان شفاء صبّانة (حديث الذكريات)	٦٩
٤- الشاعرة الشعبية فطوم بنت أحمد بن طالب العامري	١٢٩
٥- قراءة في كتاب الداعية الشاعرة علوية عبودة (المرآة الناظرة في السنة الداثرة)	١٤٩
٦- مشترحات حضرموت وصوت الخيبعان	١١٧٣

المقدمة

(أولا) إشكالية الشعر الشعبي:

لم يتم حتى اليوم الإجماع على تعريف واحد لمصطلح (الأدب الشعبي)، الذي يعدُّ الشعر الشعبي أحد أهم فنونه، والذي اختاره الدارسون العرب مقابلا للمصطلح الغربي (فولكلور Folklore)، الذي يشمل إضافة إلى الأدب: المعتقدات والمعارف والفنون الشعبية، وكذلك الثقافة المادية التقليدية.

وتحيلنا تسمية (الشعر الشعبي) على طبيعة الجمهور الذي يُؤلَّف له نوعٌ من القصائد يأخذ في الاعتبار طبيعة ذلك الجمهور؛ فيوظف لغته (الدارجة أو العامية)، ويتناول القضايا والموضوعات التي تهمّه. وتختلف أوزان الشعر الشعبي وإيقاعاته وأصواته عن تلك البحور التي صنّفها الخليل بن أحمد الفراهيدي للشعر الفصيح. وهناك بعض التسميات الأخرى التي تلصَق اليوم بالشعر

الشعبي، مثل الشعر العامي والشعر الحميني والشعر الملحون. وفي حضرموت يميل بعض الدارسين إلى تعميم تسمية شعر الدان على مختلف أنواع الشعر الشعبي، الذي يشمل في الحقيقة أغاني الأطفال والزراعة والحصاد، وقصائد غنائية أخرى لا يمكن إدراجها ضمن شعر الدان.

**

ومن المعلوم أن الاهتمام بالأدب الشعبي قد أزداد منذ خمسينيات القرن الماضي في مختلف البلاد العربية، وتعددت الدراسات فيه، وبرزت أسماء عددٍ من الدارسين له؛ مثل أحمد رشدي صالح وفاروق خورشيد وفوزي العنتيل ونبيلة إبراهيم وحسين النصار. لكن إذا كان بإمكاننا أن نجد اليوم مئات الدراسات في الشعر الشعبي في معظم الأقطار العربية فالشعر الشعبي في حضرموت لم يحظ بالاهتمام الذي يتناسب مع حجمه وحضوره الواسع بين الناس، فقد غاب الشعر الشعبي الحضرمي في الكتاب الذي كرسه البردوني لفنون الأدب الشعبي. ولم يشر له الدكتور عبد العزيز المقالح في أطروحته حول شعر العامية وكتبه الأخرى. وبالمقابل، اهتمّ به

عددٌ من الأجانب، مثل الهولندي الكونت دي لاندبيرج في كتابه (لهجة حضرموت)، والبريطاني روبيرت سيرجانت في كتابه (شعر ونثر من حضرموت). وهناك قليل من الدراسات التي أنجزها حوله بعض الحضارم، مثل عبد القادر محمد الصبان ومحمد عبد القادر بامطرف وجيلاني الكاف.

وقد اجتهد هؤلاء الدارسون الحضارم وقاموا بتوثيق شعرهم الشعبي، لاسيما شعر الدان، وحاولوا حصر أوزانه أو أصواته، وقارنوا بينها وبين بحور الخليل، كما فعل بامطرف والصبان والكاف. وقارنوا كذلك بين الشعر الشعبي والشعر الفصيح. ونال شعر حسين أبي بكر المحضار القسط الأوفر من دراساتهم. وخارج إطار الشعر لم تحظ فنون الأدب الشعبي في حضرموت بأي اهتمام يذكر إذا ما استثنينا الجهد الطيب الذي بذله حسن بن طالب الذي قام بتوثيق الأمثال الشعبية في حضرموت.

وبالنسبة لعبد القادر محمد الصبان، فقد كان إسهامه في تناول الأدب الشعبي في حضرموت متعدد الأوجه؛ فهو قد جمع بين التوثيق والتقديم والدراسة. وقام بنفسه بوضع قائمة للكتب

والدراسات التي ألفها ونشرها خلال حياته وتضم: الشعر لدى العرب، والحركة الأدبية بحضرموت، ودراسات في الشعر الشعبي، وعبد الصمد باكثير شاعر حضرموت في القرن العاشر الهجري، دارسة تحليليه، وسعيد مبارك مرزوق ملحن ألحان الدان الحضرمي، والشعر الشعبي وشعر الجمهور، والشعر الشعبي مع المزارعين. وقد قامت دار حضرموت للدراسات والنشر بالمكلا بإعادة طباعة بعضها ضمن سلسلة (كتاب الحياة)، مثل: (الشعر الشعبي في حضرموت، بحث وتوثيق)، و(الدان في حضرموت)، و(سعيد مبارك مرزوق ملحن ألحان الدان في حضرموت). وأشار الصبان إلى ما أصاب الشعر الشعبي في حضرموت من إهمال في مقدمة كتابه (الشعر الشعبي في حضرموت، بحث وتوثيق، ص٤-١٠)، قائلا: "إن الشعر الشعبي مرّ بأدوار تاريخية وزمنية، وتعرض في تلك الأدوار وعبر مئات السنين إلى التشويه المتعمد، وإلى الإهمال والترك والغض من قيمته التاريخية والأدبية واللغوية أيضا، فلم يحض بالعناية ولا الدراسة، ثم لم يحض حتى بوضع التسمية الصحيحة له.. لقد سمي الشعر المقيّد بأوزان الخليل ولوازم وروابط سيبويه شعرا عربيا

فصيحا، ثمّ إذا خلا من التدفق الشعري سمي نظما تقريريا، وأطلق عليه الشعر الحكمي. أما الشعر الشعبي- ويا للأسف- فقد أبعدوا عنه صفة العروبة والفصاحة مهما كان متدفقا عروبةً وحيويةً وشاعرية. فهل الضمة والفتحة مقياس للعروبة والفصاحة؟ والقواميس أداة حصر للفظ العربي؟ وهل تلك هي مقومات الشعر؟ لقد أسموا ذلك الشعر بتسميات متعددة، فالتسميات في اليمن: شعر حميني، شعر عامي، شعر دارج، فالدارج لأنه يدرج على ألسنة الكثرة من الناس، وقالوا عامي لأن عامة الناس تنشده وترويه ولأنه غير ملتزم بأوزان الخليل ولوازم سيبويه والكيسائي وألفاظ المعاجم. وتسميته بالحميني قديمة ومشهورة، لكن هذه التسمية تثير التساؤل لعدم وضوح ارتباطها بالمسمى؛ فهل هي نسبة إلى شخص أو إلى بلد أو منطقة -الحمين- اليمنية؟ أو أن لفظة الحميني تصحيف للفظة حميري؟ وقد قال ابن خلدون في المقدمة: كان في حمير شعراء متقدمون. ثم سموه أخيرا بالشعر الشعبي، والتسمية بالشعر الشعبي في حد ذاتها ترتبط بالشعر فهو يعبر عن الشعب وآماله وأفكاره ويخلد ويسجل الوقائع، ويتذوقه غالبية

الشعب، ويقوله العدد الكثير من الشعب، لكن الشعر الحكمي كذلك عبّر عن آمال الشعب وخلد وسجل الواقع الذي عاشه الشعب، ويمكن أن يطلق على بعض منه أنه شعر شعبي، فالصفة بالشعبية مشتركة بين الشعر غير المقيّد بارتباطات النحاة وبين المقيد بقيود النحاة".

(ثانيا) الشعر الشعبي النسوي:

قبل القرن العشرين، كان إهمال أو حجب ما تكتبه المرأة من شعر ونثر، ظاهرة سائدة في معظم ثقافات العالم؛ فالسلطات الاجتماعية والثقافية دأبت على وضع معظم نصوص المرأة في قائمة التابوهات، وحَرّمت نشرها وقراءتها، وذلك ليس فقط على مستوى الوطن العربي بل حتى في الغرب. فمن المعروف أن كثيراتٍ من كبريات الروائيات والشاعرات في أوروبا اضطررن إلى توقيع نصوصهن بأسماء مستعارة. وفي الوطن العربي؛ بسبب البنية الذهنية لمجتمعاتنا التي تسود فيها سلطة الذكر الفحل، كان

معظم النقاد ينظرون إلى أدب المرأة بشيء من الدونية، وربما الازدراء الذي أدّى إلى تغييب معظم ما كتبته النساء العربيات، في معظم كتب مصادر الأدب العربي.

ومن الواضح أن شعر المرأة العربية - بشكل عام - قد عانى من إهمال كبير حتى منتصف القرن العشرين، فقبل ذلك التاريخ لم تلتفت كتب تاريخ الشعر العربي ونقده إلا إلى ما نظمته الخنساء في الجاهلية والإسلام، وليلى الأخيلية في العصر الأموي، ورابعة العدوية في العصر العباسي، وولّادة بنت المستكفي في العصر الأندلسي، وعائشة التيمورية في مطلع العصر الحديث. وإذا كان الأصبهاني والسيوطي والمالقي قد أوردوا بعض الأبيات والمقاطع العاطفية التي تنسب لبعض النساء العربيات، وكانت تغنّى في مجالس الأنس والسمر والمنادمة، فكتّب النقد حجبت تلك النماذج، وركزت على القصائد (الجادة)، التي تدخل ضمن أغراض الرثاء والافتخار والزهد والتصوف، وبشكل رئيس تلك التي تجلت في قصائد الخنساء ورابعة العدوية.

ويمكن القول إن بداية الاهتمام الفعلي بشعر المرأة لم تتبلور إلا مع بزوغ حركة الشعر العربي الحديث، ونجمته الشاعرة العراقية نازك الملائكة، تلك "المرأة الأنثى التي حطمت أهم رموز الفحولة"، وحينما علت كذلك أصوات نسائية عربية أخرى مثل مي زيادة، وفدوى طوقان، وعاتكة الخزرجي، وملك عبد العزيز، وغيرهن. ومن ناحية أخرى، ازداد الاهتمام بأدب المرأة، شعراً ونثراً، مع بروز الدراسات الثقافية، التي تعَد دراسة (الجندر) أو النوع الاجتماعي، أهم مكوناتها.

***

وبالنسبة للمرأة المبدعة في حضرموت تحديدا، فقد عانت أكثر من غيرها من النساء العربيات من ظاهرة الإهمال والتهميش؛ فعلى الرغم من حرص الحضارم على توثيق مختلف نصوص تراثهم الأدبي، وتتبُّعهم للحركة الأدبية في القرون الماضية، فنحن نلمس تحاشيهم ذكر ما نظمته المرأة أو ما كتبته نثراً، لا سيما في مجال التراث الشعبي، وتحديداً في مجال الغناء والشعر الشعبيين. ومع ذلك، تمكنّا من العثور على نماذج من شعر بعض

الشاعرات الحضرميات. وسبق أن أشار الأديب المؤرخ جعفر محمد السقاف، في كتابه (لمحات من الأغاني والرقصات الشعبية بحضرموت، ١٩٧٥، ص٢٣-٢٧) إلى بعض الشاعرات والمغنيات الحضرميات؛ مثل سعيدة مبارك بكير التي ولدت وعاشت وتوفيت في بلدة بور شرقي سيئون، والشاعرة فاطمة البقري من منطقة الكسر غربي القطن، والشاعرة الصوفية الشيخة سلطانة بنت علي الزبيدي صاحبة حوطة سلطانة بنت علي.

ما عدا ذلك، نلاحظ أن مؤرخي حركة الأدب في حضرموت، ركزوا على النتاج الأدبي للذكور، وأهملوا ما كتبته الإناث؛ فحتى المؤرخ الأديب عبد القادر محمد الصبان، لم يشر في كتابه الشهير والرائد (الحركة الأدبية في حضرموت، ١٩٧٢) إلى أي شاعرة حضرمية، وذلك على الرغم من بروز عدد كبير منهن في بيئته وحوله، بل وفي بيته؛ فهو لم يذكر شقيقتيه شفاء وفاطمة محمد الصبان اللتين كانتا شاعرتين، ولا جدته لأبيه نور عبد القادر سالم حسان (نور قدرية)، زوجة أحمد بكران الصبان، التي توفيت في سيئون سنة ١٩٦١، والتي اخترنا أن نكرس لها الدراسة

الثانية في هذا الكتاب. وكذلك الحال بالنسبة للمستعرب البريطاني روبيرت سيرجانت الذي، كما ذكرنا، ألف كتابا عن الأدب الشعبي في حضرموت، شعرا ونثرا؛ فهو لم يشر إلى أي شاعرة في كتابه، بل أنه أكد أن الذكور هم من كانوا يؤلفون الأغاني التي تردد في مجالس النساء. أما الكونت دي لاندبرج فقد ضمّن كتابه (لهجة حضرموت) قصيدة قصيرة وجريئة، ذكر أنها للبدوية فاطمة بنت عوض، وهذا نصها كاملا:

بن عوض بن حوَل جاء عندي ونا متنخنخة في خنون بارد

دَمَس ضبضوبه في مقابري وني ما عوّلت به

قِسته ضرْع شاتي حمر روش شنه الكلب عُلّبوه عَبُوه

(ثالثا) هذا الكتاب:

يتضمن هذا الكتاب قراءات لخمس شاعرات حضرميات هنّ: خديجة عليّة ونور قدرية وعلوية عبودة وشفاء صبانة وفطوم بن طالب. ومن خلال هذه القراءات نطمح إلى ردم الفجوة في دراسات

الشعر الشعبي النسوي محليا وعربيا، لاسيما في الجانب التطبيقي. فحسب علمنا، إذا ما استثنينا ما قدمه الباحثون الجزائريون، نادرة جدا هي الدراسات التي تناولت الشعر الشعبي النسوي في البلاد العربية.

**

تنتمي الشاعرات اللاتي ندرسهن في هذا الكتاب إلى وادي حضرموت، وتحديدا لمدينة سيئون. وجميعهن كنّ يتقنّ القراءة والكتابة، إذ إنهن ترددن على الكتاتيب و(العُلم) المنتشرة في المدينة، كما شارك أهلهن في تعليمهن. والتحق بعضهن بالتعليم النظامي الذي ظهر في حضرموت منذ عشرينيات القرن العشرين. ومن أهم أسباب اختيارنا لهن وجود جزء من قصائدهن موثق في كتب أو دواوين، بعكس ما آلت إليه قصائد الشاعرات الحضرميات الأخريات اللاتي لا يعرفن الكتابة ولم يقم أحد بتوثيق قصائدهن.

ويمكن أن نؤكد هنا أن معظم قصائد الشعر الشعبي للرجال كذلك لم يتم توثيقها في الغالب لأنها تتداول شفاهيا. وكثير من قصائد النساء لم يتم توثيقه إلا من خلال ترديده مغنى في الجلسات النسائية والزواجات.

ومن خلال قراءتنا للقصائد التي يتكوّن منها متننا تبيّن لنا أن الشعر الشعبي النسوي في حضرموت يمتلك عددا من السمات التي تميّزه عن الشعر الشعبي الذكوري في حضرموت. وأولى تلك السمات تركيز النساء، اللاتي لم يكنّ يمارسن أي عمل خارج البيت، على إبراز تعلقهن بجلسات الغناء والسلا والرقص. فجميع شاعراتنا اعترفن بحبهن للغناء والسلا في كثير من قصائدهن. فخديجة عليّة مثلا، حرصت على التعبير عن حبها للغناء والطرب في عدد كبير من قصائدها، ففي قصيدة (يا الله يارب يا ساتر)، تحدثت عن ولعها بالغناء قائلة:

صوت الغنا يشرح الخاطر قــم يا فتى قرّب العدّة

وني عليّ با أحمل الهاجر قل للغزل حكموا الردة

حيّا بمن عندنا حاضـر لأجل العرس هو من حده

وفي قصيدة (ياعيني الساهرة، ص٣٠) كتبت:

مدروفكم لي ســبر ردوا عليّ الخبــر

واحد يرش المدارة بدخل ولو هو خطر

للشرح با تعنّا حسيت ذا الصوت يطفي كير مرشون. ص١١٧

وكذلك فعلت نور قدريّة التي أكدت ولعها الشديد بالغناء والسَّلا في عدد كبير من قصائدها، ففي القصيدة العشرين، مثلا، قالت:

واليوم نا سالي وحب الغناء وأفرح بمن نسنس وغنــى

يا ذا الغواني صوتكن شاقنا وبحنة الهــاجر فرحنا

وصوتكن يشبه حمائم منى وأبياته محكومة بمعنى

يا أهل السمر يا ريتكم عندنا كــلين يبلغ ما تمنى

نحن وإياكم اجتمع شملنا بالليل وألا لا صبحنا. ص٥١

وحسب علمي قليلة هي القصائد التي بيّن فيها الشعراء الذكور تعلقهم بالطرب، كما فعل الشاعر خميس كندي حينما قال:

قال بو شيخ ناموس رأسي كلما طالت المرحله

والخراعيب شلن فؤادي آه يا باهيات الخدود

باوصي أهلي وباوصي خواني عندما موت با مسأله

يدفنوني يحطوا يماني وسط قبري ربابة وعود

آه دائم تجي من لساني عندما اتسمّع البلبله

ريت شيء في القيامة مغاني بانقن في الثراء واللحود

ومن سمات الشعر النسوي الحضرمي تركيزه على إبراز علاقة الشاعرة بأقاربها، لاسيما أبيها وإخوانها وأولادها، وندرة تناوله للحياة الخاصة بالشاعرة. فمن النادر أن تتحدث الشاعرة الحضرمية عن زوجها، كما فعلت الشاعرة شفاء صبانة في اثنتين من

قصائدها. ومع ذلك يزخر الشعر الشعبي النسائي في حضرموت، مثل الشعر الذكوري، بالتغني بالحب، فالشعر الشعبي في مختلف الثقافات يعد وعاءً مثاليا للحديث عن الحب والوصال. ومعظم شعراء الأغاني، بمن فيهم حسين أبوبكر المحضار وحداد بن حسن الكاف، تتجاوز قصائدهم الغنائية تجاربهم الذاتية، فما يضمنونه من أحاديث عن الحب والوصال لا يرتبط بالضرورة بحياتهم وتجاربهم الخاصة.

وكذلك تتغنى شاعراتنا في كثير من قصائدهن بالحب في أبعاده المختلفة، ويحرصن في الغالب على عدم إبراز هويتهن، ولا حتى أنوثتهن؛ فهن يتجنبن نون النسوة ويوظفن في كثير من قصائدهن ضمير المتكلم المذكر. مثلا تبدأ خديجة عليّة بعض قصائدها بـ(قال الفتى الهاشمي....)، وتبدأ نور قدرية إحدى قصائدها بـ (يقول خو لاثنين..). ولاحظنا خلال قراءاتنا أن هناك كثيرا من الأغاني الغزلية التي نظمتها شاعراتنا يمكن أن ينسبها المتلقي إلى رجل وليس إلى امرأة.

وإذا كان الشعر الشعبي يعدُّ من أهم الوسائل التي يستخدمها الشعراء الذكور لتوجيه النقد الصريح للحاكم ورجال السياسة والمتنفذين، نلاحظ أن الشعر الشعبي النسوي يتجنب الخوض في أمور السياسة. وتشكل القصائد التي قالتها شفاء صبانة في ظاهرة التجنيد الإجباري والقضية الفلسطينية استثناءً لهذه الظاهرة.

وإذا كانت شاعراتنا يبتعدن عن السياسة، فهن لا يترددن في تناول عددٍ من الظواهر والقضايا المرتبطة بالشأن العام؛ مثل فساد القضاء، وغلاء المهور، وانتشار المحاباة والرشوة والقات في حضرموت.

وتكمن إحدى أهم سمات قصائد الشعر الشعبي النسوي في حضرموت في تقديمه لتفاصيل جلسات النساء وطقوسه المختلفة في وادي حضرموت، الذي يُحرِّم فيه الاختلاط حتى داخل بيت الأسرة. ونلمس كذلك في بعض القصائد نوعا من التضامن النسوي؛ فنور قدرية وشفاء صبانة وخديجة عليّة وعلوية عبودة يتحدثن عن المعاناة التي تسببها هجرة الرجال لزوجاتهم وأولادهم. وتحمّل علوية عبودة في كتابها (المرآة الناظرة في

السنة الداثرة)، الرجل مسئولية حالة الجهل التي تعاني منها المرأة. ولم تتردد شفاء صبانة في نقد تعدد الزوجات. لكنها، بالمقابل، توجّه نقدا لاذعا لزميلاتها النساء اللاتي صرن يخرجن للأسواق، ويحرصن على شراء مختلف أنواع الكماليات، ويبالغن كثيرا في تجهيزات الزواجات، ويتسببن في إثقال كاهل الرجال بالديون.

(رابعا) ملاحظات سريعة حول الأبعاد الفنية واللغوية للشعر الشعبي النسوي:

من اللافت، كما ذكرنا، أن شاعراتنا كثيراً ما يستخدمن ضمير المذكر المتكلم في قصائدهن في مكان ضمير المؤنث. وتستخدم نور قدرية ضمير المذكر الغائب كذلك للداعية علوية بنت عبيد الله السقاف، وذلك في قصيدة نظمتها بمناسبة زيارة قامت بها لها تلك الداعية وجعلتها شيخا للعلم، قالت فيها:

قال الذي سهران بيّت شوه في طول الدجى

ألفين يا حيّا بنون العين عندي يوم جا

حيّا بشيخ العلم لي له صيط رافع بالعلا

وجاء على نيته من مولاه يبشر بالجزا

الله يتمم قصدها يا رب في هذا وذا

عسى لها فرحة من المولى تقع في الوقت ذا

وفي ظلام الليل باتهجد وأكثر في الدعا

بالعافية با ادْعي لها دايم وبالعمر المدى

من مد يده إلى كريم الوجه ما ترجع خلا

عسى ببركتها تقع نفحة وكلين اهتدى

وتنزل الرحمة على الوديان كل جرب امتلا

وتشرب الحمة نشوف النخل يرعش بالحيا

وتطلع لثمار ترجع رخص من بعد الغلا

ألفي صلاة الله على خير الورى نور الهدى

بالنسبة لأبرز الخصائص العروضية لقصائد شاعراتنا، نرى أن توظيفهن عدداً من (أصوات) شعر الدان الحضرمي المشهورة في حضرموت، وتحديداً في قصائد الغناء، يُعد أبرز السمات العروضية للقصائد التي تضمنها قصائدهن، التي لا تلتزم بأوزان بحور الفراهيدي المعروفة. ونلاحظ كذلك أن بعض تلك القصائد الشعبية النسوية تتضمن عدداً من الزحافات والتجاوزات العروضية الموضوعة لشعر الدان، ويبدو أن الصوت الغنائي يشفع للشاعرات ويجعلنا نغض الطرف عن تلك التجاوزات، التي تتكرر عند معظم الشعراء الشعبيين.

وبالنسبة للمعجم، من المعلوم أن الشعر الشعبي بشكل عام يوظف معجماً يعتمد بشكل واسع على كلمات تصنف ضمن مفردات اللهجة العامية. وهذا لا يعني أن هناك شعراء شعبيين لا يترددون في تضمين قصائدهم كثيراً من الكلمات الجزلة والفصيحة؛ التي يمكن أن تصدم القارئ أو المستمع. مثل ذلك

بعض قصائد المرحوم عمر باعباد، أو الحبيب علي الحبشي. ومن المعلوم كذلك أن المرأة تعد عاملاً يساعد على المحافظة على مختلف مكونات اللهجات وحمايتها من هيمنة العناصر الفصيحة، معجماً ونطقاً وتركيباً. لهذا فمعجم خديجة علية ونور قدرية وشفاء صبانة يتكوّن أساساً من مفردات وتراكيب العامية الحضرمية؛ التي كانت مستخدمة حتى ستينيات القرن الماضي. ولا شك في أن المتلقي غير الحضرمي قد يلمس بعض الصعوبة في فهم بعض المفردات والتراكيب التي برزت في القصائد التي أوردناها في هذا الكتاب، مثال على ذلك: الحمّة بمعنى ضاحية المدينة الريفية المغطاة بالمزارع والنخيل، جُوّان بمعنى رديء، خزّوة بمعنى عيب، لميد بمعنى لأجل. وبشكل عام، ما يميّز المفردات المستخدمة في قصائد متننا هو الانزياحات الصوتية من تغيير صوتي تركيبي مثل لطفول في مكان الأطفال، لفكار في مكان الأفكار، لثمار في مكان الأثمار، صيط في مكان صيت.

(١)

الحبابة خديجة عليّة وشعرها الشعبي

الحبابة خديجة هي البنت الوحيدة للأديب العلامة الحبيب علي بن محمد بن حسين الحبشي، إلى جانب أربعة أخوة أشقاء: عبد الله ومحمد وعلوي وأحمد. وقد ولدت في مدينة سيئون سنة ١٢٩٢هـ ١٨٧٥م، وحظيت برعاية كبيرة من والدها، فتعلمت على يديه اللغة العربية وتلقت عنه العلوم الشرعية، وقرأت عليه عددا من الكتب الدينية والأدبية، وسمح لها بالاطلاع على بعض ما يدور في مجالسه من دروس علمية وجلسات شعر وسماع، وخصّها بوصية دعاها فيها إلى التزام طريق أهلها وسلفها.

وتزوجت خديجة الحبشي من عبد الله بن حسين بن علوي السقاف الذي مات مبكرا (بعكس ابن أخيه محمد: المعمر جعفر بن محمد السقاف)، وذلك يوم الاثنين ٢١ شوال ١٣٢٠هـ، وخلفت

خديجة منه بنتين: نور وسيدة، وتولت تربيتهما بنفسها. وتوفيت هي في السادس من ربيع الثاني عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م) عن عمر يناهز الستين عاما.

**

من المؤكد أن خديجة عليّة قد تأثرت كثيرا بوالدها، الذي كان رجل دين وعلامة وشاعرا يمارس الوعظ، ويكتب الشعر باللغة الفصحى واللهجة الحضرمية، فاستطاعت أن تنظم الشعر الشعبي وهي لا تزال صغيرة. ويقال إنها فاقت إخوانها؛ لا سيما أنها حرصت على اقتفاء أبيها، ومارست مثله الوعظ، ودأبت على إنهاء حلقات الذكر والوعظ التي كانت تنظمها لنساء سيئون بإتاحة الفرصة للمغنيات بأداء بعض قصائدها للترفيه والتسلية.

وعلى الرغم من تعلم خديجة عليّة القراءة والكتابة فهي لم تكتب إلا الشعر الشعبي، ولها قصائد نظمتها على أصوات (ألحان) الدان الحضرمية الشائعة في زمانها. وسنة ١٩٨٧ قام الأستاذ علي محمد السقاف، الذي كان ناظر المعارف في عهد السلطنة

الكثيرية في سيئون، بجمع مئة وست وثلاثين قصيدة، وقام بصفها ونشرها مصورةً في ٢٢٧ صفحة تحت عنوان: (هذا ديوان للحبابة خديجة بنت الحبيب علي الحبشي).

في هذه القراءة، استعرضنا أولا القصائد التي عبّرت فيها الشاعرة عن حبّها للغناء والطرب. وفي الجزء الثاني تناولنا طريقتها في الحديث عن الحب بأشكاله المختلفة. وقدمنا، في الجزء الأخير من القراءة القصائد التي احتفت فيها خديجة عليّة ببعض الأمكنة في حضرموت: سيئون وتريم وحريضة.

أولا- خديجة عليّة وحب الغناء والطرب:

عبّرت خديجة عليّة في قصائدها عن موضوعات مختلفة، بأسلوب سلس ومبسط. ومثل نور قدريّة حرصت على التعبير عن حبها للغناء والطرب في عدد كبير من قصائدها، ففي قصيدة (يا الله يارب يا ساتر)، تحدثت عن ولعها بالغناء قائلة:

صوت الغنا يشرح الخاطر قم يا فتى قرّب العدّة

وني عليٍّ با أحمل الهاجر قل للغزل حكموا الردة

حيّا بمن عندنا حاضر لأجل العرس هو من حده

لي صيتهم في الورى شاهر. ص١١٧

وفي قصيدة (ياعيني الساهرة، ص٣٠) كتبت:

مدروفكم لي ســبر ردوا عليّ الخبر

واحد يرش المدارة بدخل ولو هو خطر

للشرح با اتعتا حسيت ذا الصوت يطفي كير مرشون

وبعد أن تقدمت خديجة عليّة في العمر وأثقلتها هموم الحياة اصطبغت قصائدها بمسحة حزينة، وتحدثت فيها عن الوهن والتعب وتغيّر الحال، وتضمنت بعض القصائد دعوة المتلقي إلى مساعدتها على تجاوز محن الكِبَر، وقالت في إحداها (ص٤٨):

كنت سالي ما اليوم من شاف حالي رثا لي

تعبان والأثم قرّ يا رجالي

عينوا معي في سهر ذي الليالي

شونا مقيّد ومرصون

ضاق حالي من شافنا يُحَرّر ألا خيالي

وحس في الجوف حر

لي جرى لي ضربوا به أهل المحبة مثالي

من شافنا قال مجنون

يالمغتّي بيّن بيوتك إلى من تكتّي

إن بحر أو كان بر ليه تعتي

يا ريتها با تقع بالتمني

بأطرحك في العين والنون

والمغاني بنّت بجوف المولّه مباني

يفرح إذا الضرع د ر والمجاني

تزهو لمن له براسه معاني

يطرح بيوته بقانون.

وتتضمن قصيدة أخرى ذكريات الماضي وحب الغناء وتلك الهموم التي باتت تقيّد الشاعرة، التي تقول (ص٨):

قال الذي بات ساهر يا عرب طول الليالي

أشياء في القلب مستورة

لو حد درى ما بقلبي يا محبيني رثا لي

باشكي للواحد المعبود

يا ساجع الصوت ذكرت العرب أول وتالي

أيام بالأنس مشهورة

نِبات في وصل كامل ننتظر قرب الوصال

شو وقتنا يا عرب مسعود

حيّا زمن يومنا حِب الغناء ولي قلب سالي

لكن شوكتي مكسورة

عذبنا الشوق شو كل من نظر جسمي رثا لي

كـُلـّين مطلق ونا مقيود

ثانيا- خديجة عليّة وشعر الحب:

يعد الشعر الغنائي في مختلف الثقافات وعاءً مثاليا للحديث عن الحب والوصال، ومعظم شعراء الأغاني، بمن فيهم حسين أبوبكر المحضار وحداد بن حسن الكاف، تتجاوز قصائدهم الغنائية تجاربهم الذاتية، فما يضمنونه من أحاديث عن الحب والوصال لا يرتبط بالضرورة بحياتهم وتجاربهم الخاصة.

وخديجة الحبشي تتغنى مثلهم في كثير من قصائدها بالحب في أبعاده المختلفة. وتحرص في الغالب على عدم إبراز هويتها، ولا حتى أنوثتها؛ فهي توظف في معظمها ضمير المتكلم المذكر؛ مثلا، تبدأ القصيدة التي نظمتها على صوت (يا قمر شارقة فوق سيئون)، قائلة:

قال من بات ساهر في الليالي ليه ما حد نشد كيف حالي

يومنا مثل رأس الخيل مرصون

يوم قلبي مضيّع يا حبايب دوروا لي دواء شو ذاك واجب

من نظر ضعف حالي قال مجنون. ص١٣١

وفي كثير من الحالات تبدأ خديجة عليّة قصائدها بـ(قال الفتى الهاشمي....)، ففي القصيدة التي نظمتها على لحن (ربي تشفي في العشقة قلوب المعاليل)، تقول:

قال بن هاشم الليلة تزعّل منامي

ما دريت إش لي غيّر عليّ فيـر زامي

دمع عيني مساييل

هاك يا ذا المغني قول لي يشفي الهم

من خزانة كريم الوجه رزقه وقع جم

كل بخير المكاييل. ص٦٨

وتبدأ قصيدة أخرى، تذكر فيها ولعها بالطرب (السَّمع)، قائلة:

ويقول بن هاشم يحن القلب لا حَسنّ السَمَع

وألا سِمع مطرب يخطرف بالغناء طرفه دمع

من جور ما به لا دجى الداجي يبيّت في وجع

من شدة الأشواق طرفه في المحبة ما هجع. ص١٦٨

ونادرا ما تبدأ الشاعرة قصيدتها بذكر اسمها، مثلما فعلت في القصيدة التي تصرح فيها بحنينها إلى بلدة حريضة في غرب وادي حضرموت، قائلةً (ص١٤٣):

قالت خديجة عليّة زاد شوقي كثير

إلى حريضة ومن فيها صغير أو كبير

من كثرة الشوق كاد العقل مني يطير

يا حامل الخط بكّر من هنا بالمسير

لعاد يلحقك لا هجّرت حر الهجير

با أوصيك تقصد للدار الكبير.

وفي الحقيقة، هناك كثير من الأغاني الغزلية التي نظمتها خديجة عليّة، من المرجح أنّ المتلقي سينسبها إلى رجل وليس إلى امرأة، مثلما هو الحال في هذه القصيدة:

ايش ذا النور في الخلفة شرف كان ذا برق عاده با يعود

خاف ذا وجه محبوبي بدا ذاك لي هو يطل في الوعود

من بلي في المحبة ما سلي دوب دمعه على خده يجود. (ص١٢٧)

إضافة إلى ذلك، من المعلوم أن العادات الاجتماعية في حضرموت لا تسمح للشاعر، سواء كان ذكرا أو أنثى، أن يتغزل جهرا بمن يحب، وتفرض عليه التكتم على المشاعر العاطفية. وتتحدث الشاعرة خديجة عليّة في كثير من قصائدها عن ضرورة التكتم في الأمور العاطفية. ومثل كثير من شعراء الدان في عصرها وظفت الشاعرة صوت (لا تعطي السر من لا يكنه)، لتقدّم بعض النصائح لمتلقيها، قائلة:

يازين نسنس بصوت المغاني إن لك معاني

عساه يدرك بذا الصبر جنه

لا تعطي السر من لا يكنّـه

مسكين دائم وقلبي مضيّع شي طب ينفع

قل للمحبين كم شفت محنه

لا تعطي السر من لا يكنّـه

وتؤكد الشاعرة على أنّ السِّرِّيّة في الحب ضرورة، وعلى المحب أن يصبر ويكابد، وتقول:

من بلي يازين يصبر بالسريره ما يخبّـر

غير من قلبه غشيم

والمحبه لها عندي قواعد غير ماحد معي فيها مساعد

من قدا لي بهم خاطري محنون

يالمغني تفضل رد جوابي قبل لا عاد يظهر سر غابي

كيرها في الكبد مرشون

كما دأبت خديجة عليّة في كثير من قصائدها، على جعل الحب مرادفا للعذاب و(البلوة). ففي القصيدة التي مطلعها (يا الله طلبناك تغفر، ص١٥٤)، تقول:

قلب المغني مولع والعين تدمع

لا حل لش يا الهوية

كم لي وقلبي معذب ونا مسبب

والعقل مني همية

العشق عندي فنونه كافه ونونه

بتيت فيه العكية

يا أحباب رثوا لحالي في ذي الليالي

هيا بنظرة إليّه

وتحذر خديجة عليّة المحب من بلوة الحب، وتنصحه ألا يطأ بحره إذا لم يكن واثقا من نفسه ويهاب الموت، وتقول له:

با نصحك يا المحب أن المحبة بليّة

لا تعدّي طرفها إلا إن رجولك قويّة

خير لك يوم تعبر في الطريق البتيّة

لي يحبك ولي يشناك ما هم سويّة

قل لقاضي الهوى قلِد بواب الهويّة

وارفع الحكم لي منه إليه الشكيّة

صاحبي قلد الأبواب بالطالعية

قال لي لا تجينا إلا إن كتبت الوصيّة

ما رثي لي ودمعي فوق خدي خوية

لو عبر في وسط مسيال نقر حصية

وقتنا عيف يا الأخوان ما له رثيّة. (ص٢٢٠)

حب الإخوان:

وعبّرت خديجة عليّة في كثير من قصائدها عن حبها لأقاربها وتعلقها بهم، وفي مقدمتهم أبوها علي بن محمد الحبشي، وإخوتها،

لاسيما أحمد وعلوي اللذان عاشا في المهجر؛ المكلا وجاوه، وكذلك شيخ أبيها ابو بكر عبد الله العطاس المدفون في بلدة حريضة. وفي الغالب تجسّد حب خديجة لأخويها في صيغة أدعية وابتهالات ومطالبة أخويها بترك المهجر والعودة إلى سيئون. فهي، مثلا، تكتب إلى أحمد، حينما كان لا يزال في المكلا هذه الرسالة/القصيدة، التي تقول له فيها:

هاك يالمعتني خطي إلـمّا المكلا

بلغه للذي ذكره به القلب يجلى

مرحبا به مئة آلاف حيّا وسهلا

قـرة العين لي دايم بذكره تسلى

قل له انا قتلنا الشوق ياخوي قتلا

لا متى يا منى قلبي بك الدار يملا

فان قلبي من الأشواق في وسط مقلا

يا درك يا حبيب القلب من با يسلا

ندعي الله عسى يجعل لك الصعب سهلا

بركة القطب ذخر الكون لي ذكره أعلا

بن محمد ببركاته لنا الكاس يهنا. (ص١٤٤)

وقالت في قصيدة بعثتها لأخيها علوي:

يامودّي تأتي إلمّا الطويله بعلوي

يكفيه من ذا السفر طال بعدي

والقلب مشطون والعين تبكي

من كثرة الشوق محنون

شفك حاضر ما بيننا الذكر لك في الخواطر

خصوص وقت السمر لا تحاذر

جدد لعزمك كم من يسافر

لا جنح الليل يسرون. (ص٥٠)

وتنهي قصيدة (ياعيني الساهرة) داعية أخيها علوي بالعودة إلى سيئون، قائلة:

يا علوي إيش البصر يكفيك من ذا السفر

والوقت كثرت شواره با أعطيك مني خبر

لا تردف المبنى جرّد عزومك مع لي با يخرجون. ص٣٠

وفي بعض القصائد تتوجه خديجة إلى الله وتدعوه أن يرفق بحالها ويرد لها أخويها أحمد وعلوي، مثلما فعلت في هذه القصيدة القصيرة التي قالت فيها، بعد أن عبّرت عن المعاناة التي سببها لها بُعْد أخويها:

يا عديم المثال يا الله ارفق بحالي

شفه بالشوق عتبان

كل ما لاح لائح قلت ذا عطر فائح

خاف خاتم سليمان

قل لظبي الخميلة المحبة ثقيلة

عوّجت كل ميزان

فرقة أحمد وعلوي منها قل سلوي

دوب خاطري كسلان

يا آل كسب الجميلة شوّقوا للطويلة

حلها قطب الأزمان. صفحة ١٠٤

وفي قصائد أخرى تتوجه الشاعرة بالدعاء إلى الرسول وأبيها، وتطلب منهما إقناع أحمد بالعودة لبلاده، وتقول:

يا علي يا شيخنا بن محمد حرّك ولدك إلمّا بلاده

شي بصر يا أخوان في خوكم أحمد لي شواره ما عطاها قياده

كل من سار لأرض جاوه ما لحقنا منها شي فياده

يا رسول الله نبغا كرامه عزم يبرز مثل طش الرهاده. (ص٥٣)

وفي قصيدة أخرى تتحدث خديجة عن شدة الألم الذي سببه لها طول غياب أخويها وأولادهما الذين لم تشاهدهما إلا في الصور (القنابر)، وتطلب من أبيها رد إخوتها من بلاد جاوه، قائلة:

يا حبيب علي لي كرامتك با تحصل مع كل شي

والسعادة تقع دنيا ودين

دوب ما نا سلي با كرامات منك يا حبيبي علي

شف عيالك بجاوه غارقين

كان قلبي سلي كننا يا عرب ذا الوقت مانا خلي

كدر خاطري طول السنين

با نوصي لهم ريت حد بالذي في القلب يحكي لهم

خاف ما هم بشوقي داريين

كير في الجوف شد يوم ما حد تشوق من رفاع النسب

كلهم في بتاوى عامدين

يا درك يادرك هو من اللي في منبخ منك ما احترك

قل له إخوتك ماهم راضيين

خاطري ما استقل يوم شفت القنابر حقكم والسقل

لا دجى الليل بيّت في حنين.

يا علي يا علي با كرامات للغائب الى أرضه يجي

جا المكتب وقالوا خارجين. (ص٧٨)

ثالثا - خديجة عليّة والاحتفاء بالمكان:

مثل معظم مؤلفي قصائد الدان الحضرمي الغنائية احتفت خديجة عليّة بعددٍ من الأمكنة في قصائدها، وعلى رأس تلك الأمكنة

مدينتها سيئون الطويلة. فعلى صوت (حـولوا بالسيل مقبل بانسقي به جروب العاشـقين)، تغنت خديجة بسيئون ودعت المتلقين إلى زيارتها وزيارة قبة (ضريح) أبيها علي محمد الحبشي:

ريتكم لمّا الطويله باتجدّون السفر

للزياره باتقضــون الوطـــر

با يتمّين المقاصد لا ضويتوا زايرين

قصدوا القبة وقولوا ما نخاف أهل الحذر

با نشوفه يا حبايب بالنظر

سيدنا المحبوب لي ينضح باليسر واليمين. (ص٤٦)

وعلى لحن (أو صوت: ضاع عقلي علّيّه عندكم يا آل سيئون)، تدعو صديقتها بنت العمودي لزيارة الطويلة وتجديد اللقاء، وتقول لها:

جدوا العزم سعفه با تجد الركائب

وبا نزور الحبايب

لي لهم صيت من ربي مشرف ومكنون

ليلة النور فيها با يتم كل مقصد

بركة القطب الأسعد

بركة الحبشي اللي عنده السر مكنون

لا مكان آل الحبشي قل لبنت العمودي

عالمسرات عودي

لا نودي نفارقكم ولا أنتم تودون

ذي وصاتي عساها با تبلغ سلامي

للوجوه الكرام

لأخواتي عساهم لي من البعد يرثون

في تِزهّا وبَشّه يوم جين المواتر

وانشرحن الخواطر

لأجل نبغا زيارة قرة العين والنون. (ص١٣٣)

وتذكر خديجة كذلك ليالي الأنس التي قضتها في ضواحي سيئون، وتحديدا في المزارع التي يمتلكها أهلها، مثل مزرعة أنيسة وبير السعادة، فقالت:

سعدك الزين سلاك المحن انبسط في أنيسة وأهلها (ص٥٢)

ما أحسنه من يوم في وقت يعجب لي وقع وسط بير السعادة (ص٥٣)

وعلى صوت (شفنا غلوب الهوى يا سعد مبنيات) تتذكر الشاعرة ليالي الأنس والمساجلات الشعرية في سواقي سيئون، وتقول ص٧٠:

ما سمرة الساقية كذها لنا عادات

نبات في بسط نتناضح من الأبيات

ما خالي ألا يبى فوق الجبل مبيات

يتعشق ألا الرواعي يومهن زينات

يقنص غزالة وبا يخسر عليها ميات

وبت حسين الغزالة تعجبك لاكذ جات

الخشم خنجر وما الأعيان قتالات

ومبسمه برق يتلمع على عينات

طاب السمر طاب ما الليلة نبا مبيات

والصبح هاتو غذيلب شعب يا سادات.

وتتغنى خديجة عليّة كذلك بمدينة تريم الغنّا وقصورها المزخرفة، وتتحدث عن حنينها لها قائلة:

إلى تريم المدينة شاق مني الجنان

شقته لذيك القبب وأهل الوجوه الحسان

سلام مني عليكم عد طاش المزان

بركة حبيب علي يصلح كل شأن

ويجتمع شملنا بأصحابنا والخوان

نديركاس الموده في شريف الدنان

نسمر إذا ناموا الحساد لما الأذان

في بيت عالي مزخرف مثل دار الجنان. ص١٢١

وتحتفي خديجة عليّة أيضا ببلدة حريضة، التي زارتها مرات عدة مع أبيها، وربطتها بها علاقة متينة، وفي قصيدة قصيرة عبرت عن حنينها قائلة:

قالت خديجة عليّه زاد شوقي كثير

إلى حريضة ومن فيها صغير أو كبير

من كثرة الشوق كاد العقل مني يطير

يا حامل الخط بكر من هنا بالمسير

لعاد يلحقك لا هجّرت حر الهجير

با أوصيك تقصد إلى الدار الوسيع الكبير. (ص١٤١)

نور قدرية والشعر الشعبي

(أولا) من هي نور قدرية؟

تنتمي نور قدرية لعائلة سيئونية عريقة، مارس عددٌ من أفرادها - ذكوراً وإناثاً - نظم الشعر الشعبي والغناء. وهي البنت الوحيدة للشيخ عبد القادر بن سالم بن بكران حسّان. ولديها شقيقان هما: أحمد حسان، ومحفوظ الملقب بقاضي شبام. وكانت كثيرة الاعتزاز بهما؛ واستهلت بعض قصائدها بالانتساب إليهما قائلة (يقول خو لثنين...). كما أن علاقة نور قدرية بأبني أخيها محفوظ حسان: الشاعران عمر (بو قدري)، وعبد القادر (بو سالم)، كانت متينة، وعندما كانت تذهب لزيارة أخيها لا تكتفي بالاستماع لقصائدهما، بل تسمّعهما محاولاتها الشعرية، وتدخل في مساجلات معهما. وقد عبّرت عن حبهما لأبني أخيها في هذه القصيدة التي قالت فيها:

قلبي تشوّق لبو سالم وبو قدري إذا ذكرت مجالسهم حيي قلبي

نقعد على بسط حتى العيش نتهنّاه يحفظهم الله كذ وقعوا سند لِيِّه

عيال خويه قعوا يا خير ذرية من بر في الرحم يتقرب إلى مولاه

وتقول:

ويطول عمري عسى يا رب جازيهم

وشل من رزق با قسّم وبا اعطيهم

والجود لي هو معيِّه قط ما با نساه. ص٢٥

وتزوجت نور قدرية من الشيخ العلامة المربي أحمد بكران بن سالم الصبّان، وأنجبت له عددا من الأطفال، لم يسلم منهم إلا البنت مريم، والولد محمد أحمد الصبان، والد الأديب عبد القادر الصبان والصحفي علي الصبان، والشاعرة شفاء صبّانة التي كرسنا لها الدراسة الثالثة في هذا الكتاب، وشقيقتها الشاعرة فاطمة صبّانة. وقد أشارت نور إلى بنتها مريم وولدها محمد في إحدى قصائدها حينما قالت:

لأثنين سلموا ثمر قلبي وفيهم الخير والبركة

مريم وخوها كما عشرة يا رب با تتبعه سبعة. ص٢٨

وتوفيت الشاعرة نور قدرية في الثالث والعشرين من شهر جماد الثاني سنة ١٣٨٠هـ، الموافق للحادي عشر من ديسمبر سنة ١٩٦٠م، ودفنت بجنب قبر زوجها أحمد الصبان وابنها محمد بمقبرة الشيخ الشاعر عمر بامخرمة في سيئون.

(ثانيا) حب نور قدرية للغناء والسلا:

يذكر محمد عمر محفوظ حسان، الذي قام بجمع قصائد نور قدرية، عمة والده، أن بداية ولع نور حسان بنظم الشعر وإنشاده وغنائه تعود إلى أيام طفولتها؛ حينما كانت تتردد إلى بيوت ابني أخيها محفوظ عبد القادر حسان، عمر وعبد الله، اللذين كانت تقيم الأيام الكثيرة عندهما. وكانت تشارك خالها في إنشاد ونظم القصائد والمساجلات الشعرية، لا سيما التي يجريها مع عمر محفوظ حسان، الذي قال فيها عدة قصائد عند نزولها وجلوسها عنده، وعند عبد الله حسان. ولها عدة قصائد فيهم جواباً على

قصائدهم، وكذلك في ابن أخيها علي بن محفوظ حسان الفقيه المعروف، وسالم بن أحمد محروس الملقب (بو سلوم). ص٥

وقد ذكرت نور قدرية ولعها الشديد بالغناء والسَّلا في عدد كبير من قصائدها، ففي القصيدة العشرين قالت:

واليوم نا سالي وحب الغناء وأفرح بمن نسنس وغنى

يا ذا الغواني صوتكن شاقنا وبحنة الهـاجر فرحنا

وصوتكن يشبه حمائم منى وأبياته محكومة بمعنى

يا أهل السمر يا ريتكم عندنا كلين يبلغ ما تمنى

نحن وإياكم اجتمع شملنا بالليل وألا لا صبحنا. ص٥١

وفي القصيدة الثامنة تؤكد نور قدرية أن حبها للغناء والطرب قد انغرس في قلبها منذ صغرها، ولا تستطيع التخلص منه حتى حينما تقدمت في السن، وذلك لارتباطه بحب أهلها:

حب السلف عندي عسى لا انقطع على الأثر با سير واتبع

أهل التقى والعلم واهل الورع وجوههم بالنور تلمع

من حبهم يسقونه كرع دايم وهو في خير يجزع

حرك أشجاني ذاك لي فقع على الطرب بالصوت يسجع

حب السّلا في وسط قلبي زرع وفي السّلا قلبي مولّع

لا قوت يستاكل ولا ما اجترع يا اهل السّلا قلبي مضيّع

داويت في داويت ما شي نفع وشي دواء للقلب ينفع

يا ريت الا بالتماني تقع با أدّيه لمّا الفجر يطلع

يا ريت حتى كان بعض السِوَع لا عندكم با سير وارجع

واليوم شو وقت الصغر قد جزع لمّا متى ما طعت أقنع

واختم بمن هو للخلايق شفع محمد البدر المشفّع. ص٢٢-٢٣

وتحدثت نور قدرية كذلك عن ولعها بشعر الغناء والدان في مساجلة مع حفيدها الصحفي علي بن محمد الصبان، الذي قال لها:

طلبت الله مولانا وبا يغفر خطايانا

نبا با نشرب الماء الزين

وبا غني وبتأنى عسى ربي يجملنا

وفعلي باه كله زين

سلام آلاف ذا متّي لها مخصوص لبت قدري

بغينا سنينها يمدين

وردّت عليه جدته الشاعرة نور قدرية:

علي صبّان با يطرب معه هاجس لا ضوّلمغرب

وياب أبيات لي يشفين

علي جوّبت يا مالي وقولك عندنا حالي

شف أيّام المسرة جين

وتذكر نور قدرية أنها لم تستطع مواصلة حضور جلسات شعر الدان عندما تقدمت في العمر. وتؤكد كذلك أنّ المحن، التي

كدرت حياتها وسببت لها الأرق، حالت دون استمرارها في نظم القصائد الغنائية:

ويقول من حركت اشجونه طول الدجى ما هنى رقده

هو من ينسنس على الدان لا شل صوته تنسمته

صوت الغناء حرك اشجاني ولعاد غنيت لي مُدّة

وكل ما جيت با غنّي حصلت دنيا الندم نِكدة

ذكرت أوقات قد عبرت على المسرات والرعشة

على صفاء وقتنا دايم وقلوبنا كلنا وحدة. ص٢٧-٢٨

وفي قصيد أخرى، ربطت الشاعرة نور قدرية تذكّر أيام الصبا والطرب والسلا باتصالها بابني أخيها محفوظ؛ ففي قصيدة نظمتها حينما تقدم بها العمر، عبّرت عن حسرتها على ما سلف من أيام الشباب التي كانت فيها ملازمةً مجالس الشعر والطرب والغناء، وقالت:

أبديت بالله ربي واسع المدة ولا يرده خلي من مد له يدّه

ومن توثق بحبل الله ما خلاه

كلٌ تفطر وني في الدار حسرانة ودير لفكار وسط الريم حيرانة

لكن في عافية با قول لحمد الله

يا هَوين يا هَوين ما شي مقدرة فيّه واليوم وقتش عبر يا نور قدريّة

لنسان لا كذ حُدّق يقعد في مصلاه. ص٢٤-٢٥

(ثالثا) الشأن الخاص والشأن العام في قصائد نور قدرية:

من اللافت حقًا غياب أي إشارة إلى علاقة الشاعرة نور عبد القادر حسان، بزوجها أحمد بكران الصبان، في أيّ من القصائد التي تضمنها الديوان المنشور. وبالمقابل، تضمنت تلك القصائد بعض الأحداث التي سببها لها ولعها بالغناء والطرب؛ ففي قصيدة تذكر ليلة من ليالي الغناء التي انتزعت فيها منهن أدوات الغناء (الهاجر والمراويس)، بسبب مبالغتهن في الرقص، وتقول:

هاتوا سبح با نشل شروة من عندنا شلوا العدة

صبان لي يحمل الهاجر وكل الشور من تحته

وتفقدي قل لجوّاسة وخلي الطبع والحِدّة

ما شان صبان ما سيبه ذلا عمر حامل الشدة

حريم بيّتن في شدّة كما المغاريم في جدله

يرقصن من فوقنا قامة ما قاصر ألا من الهدّة

وفي عدد من القصائد، تعبّر الشاعرة عن حبها لعدد من أقاربها ومحبيها؛ ففي القصيدة الثانية والعشرين مثلا، تخاطب حفيدها عبد القادر محمد الصبان، الذي أمضى جزءا من شبابه في المملكة العربية السعودية، والذي أصبح أديباً وناقداً مرموقاً، قائلة:

يا عيالي فراقكم شوه غيّر مزاجي

وطال بعد السفر

رك حالي واتكدر القلب لي كان سالي

وراه ذا الوقت مشطون

باه يخرج قريب ذا الوقت ما باه يبطي

في ذي السنة ما يخلفون

والحق أهلك با ندعي الله يوديك لرضك

يكفيك لي كذ عبر

لا عدمتك لمّان تفرح حبابتك وأمك

لي هم عليكم يحنون

قل لقدري في كل شي يبلغك ربي

بجاه خير البشر

دايم أدعي لك عافية دوب وأعمار تمدي

يا قرة العين والنون

بار في أهله با ندعي الله يؤخذ بيده

ما شي علينا قصر

طال عمره ودائم الوقت لا زال ذكره

وباله أولاد يربون. ص٤٨-٤٩

وفي القصيد التالية، الثالثة والعشرين، تتحدث عن كرم عمها وأبنيه الشاعرين عبد الله وعمر محفوظ حسان، قائلة:

أبدي بمن للخلائق قد فطر وبالرجاء تحت بابه واقفين

وخو حمد لا ديار أهله خطر أربع وهم في فرح متأنسين

لا حس لأصوات من منزله خَرّ وقال يا مرحبا بالهادفين

وبو حمد ربي سيطه لا قصر يا في العمر يمدي والسنين

البسط بكره وبالليل السمر في خير نقرأ كتاب الصالحين

سرنا إلى عند بو قدري عمر هو صاحب الجود والخلق الحسين

به ينشرح خاطري لا كذ حضر ومجلسه يجلي القلب الحزين

يا بيت عالي مرشش بالنور يعجبك شوفه خلاف الباقيين

لا قرقع الضيف منه ما اعتذر لي جاءوا لمان بيته قاصدين

يبذل ويخسر ولا عنده خبر الله يكفيه عين الحاسدين. ص٥١-٥٢

كما حرصت نور على تضمين قصائدها كثيراً من النصائح والمواعظ لكل من حولها، تدعوهم فيها إلى الصبر والقناعة والتحلي بمكارم الأخلاق، وتعزو فيها سوء أحوالهم إلى أعمالهم السيئة، قائلة:

يا بخت من هو على حكم القضاء صابر

ولا يعوّل على الدنيا وما فيها

ودوب وقته وهو حامد وهو شاكر

تعبر حياته سعيدة ما يشوف الهون

واحذر هوى النفس تتبع شورها العاثر

لا والحذر لا تساير من يدهبيها

واحفظ فروضك، ودينك لا يقع قاصر

وساير أهل السلف لي في الكتب يقرون

ذلا من أعمالنا يوم الزمن غائر

بسطاه متعكية والله با يبتيها.

ولا يفوتها كذلك أن تؤكد، وهي تعظ الناس، أن الالتزام بالأخلاق الحميدة لا يتنافى مع حب السلا والطرب، وتقول في إحدى قصائدها:

يا بخت من هو في طريق المصطفى شمر وسار

يحفظ فروضه هي ودينه وانّ ركع وقت المثار

وساير الا الزين واحذر لا تساير كل ضار

وساير اهل العلم واهل العرف والناس الخيار

والنفس لا تتبع هواها شف هواها الا غيار

واحذر من الغيبة وجنب منها شفها دمار

وامّا السلا لا فيه شي خزْوَة ولا شي فيه عار

والفي صلاة الله على احْمد عدّ ما كلّ طير فار.

الشأن العام في قصائد نور قدرية:

لم تتردد الشاعرة نور قدرية في تناول جوانب عدة من قضايا الشأن العام في بلادها حضرموت، في الفترة التي عاشت فيها؛ فهي تذكر مثلاً ما آلت إليه البلاد من فوضى ونهب وظلم ومجاملة ونفاق، وقالت في هذه القصيدة:

ما حضرموت اليوم مشرح لآل حاضر لا جابوا الحاصل يقول التمر ليّه

ودوب شرحان شو كل يخابر مولى النقيله شب في بطنه مشاعيل

ما يسلك في البلد إلا من كان تاجر وكل من هو تحت يده دامكيّة

إذا بغى حِيّة يضوِّيها صوادر حتى خيار الناس رجعوا له مذاليل

وقالوا إنه شيخ ذا رجال طاهر لا هو عمي ردوا كلامه في السويّة

كلٌ يحبه قال أنا با اعطيه خاطر لميد تسلوم الدراهم والمواكيل

وكثرت الأشوار كم من شور عاثر وتغير التركوب بقعة ملعبيّة

وين لي هم يعرفون المناكر ولعاد حد ميزوا في الحكم تعديل

وأهوال ظهرت ذا الزمن والذهن حائر وين هم لي يبتّون العكيّة

لي صدروا الحكم كلٌ قام شاكر على طريق الشرع ما شي فيه تبديل

ما يحكمون إلا المحابي في المحاضر وألقوا مجامع في حجج ما هي بتيّة

كمين واحد قال أنا رجال شاطر وألقى عمامة شال وألقى له عثاكيل

ويا الله عسى خير يأتي بالبشاير من كل بلدة والطرق سمحه بتيّة

وكل من له دراهم با يبادر ولعاد شي جمرك ولا في الحكم تسجيل. ص٥٧

وفي قصيدة أخرى تقول:

قال الذي بيّت عبر الليل الطويل البهيم

حيران في الدنيا وفي ذا الوقت علمك يا عليم

واتغير التركوب في الأشوار شو كل قسيم

غلوا في الأسعار والكبهات والطبع الشتيم

والنقص والقصران عند الكيل والفعل الذميم

والآدمي طاغي في الدنيا على نفسه غشيم

ما يحسب المخرج من الدنيا ولا نار الجحيم

إن حد بغى شي دين يوحل ما يحصل له غريم

ساروا إلى المطعم توطّى كل من راسه حشيم

كم الغنم في الحوش الرحلان مرة والحريم.

وتعود نور قدرية إلى وصف الأوضاع المتردية في سيئون، في قصيدة أخرى طويلة، وتربط فيها بين تردّي الأوضاع وبين اضطرار الرجال إلى ترك العمل فيها والهجرة، وتركهم نساءهم وأطفالهم وأرضهم، وقالت فيها:

قال الذي في الدجى بيّت يدير الفكار من وقت جُوّان شيّب بالطفول الصغار

أهوال في الوقت ظهرت منها الذهن حار واتغير الوقت بالوكلاء وكثر لشوار

كلين يعمل برأيه والغلا في السعار ما حد يلبي بحد صاحب ولعاد جار

ولعاد مدة ولا صدقة والأيدي قصار وضاقوا الناس ساروا إلى طريق السفار

ساروا وخلوا نساءهم والطفول الصغار وأهل الخلا كلهم ساروا وخلعوا الآبار

دركاه يا أهل السلف يا أهل الرتوت الكبار عسى غياثه من المولى علينا يغار

وتأتي أخبار لي تفرح وفيها مسار والصلح في كل بلدة وانطفت كل نار

سيئون ترجع على العادة بلاد النوار العلم والدين والطاعات فيها سبار.

**

وفي الختام علينا أن نشير إلى أن ما تمّ جمعه في الديوان المنشور لنور قدرية، ليس إلا جزءاً من الكم الهائل من القصائد الشعبية التي نظمتها، وقد أكد لي هود حسان الذي أسهم في جمع القصائد التي في الديوان، أن المغنيات الحضرميات قد استعرن منها بعض الكراسات التي تحتوي على عدد من قصائدها، ولم يرجعنها لها ولا إلى عائلتها. كما أن عدداً من أبناء سيئون يردّدون اليوم

أبياتاً لنور قدرية لم يتضمنها الديوان، منها على سبيل المثال، هذه الأبيات التي يؤكد العلامة محمد عبد الله بن بصري السقاف أنها لجارته الشاعرة نور عبد القادر سالم حسان، وقد امتدحته بها مؤكدة لبنات الحي أنهن لن يتحصلن على نصيب أفضل منه:

ود آل بصـــري ما مثيله في السقل

ود عبد الله محمد با تقربه كل عين

با يقع ود الهـداية قط ما با تشتكين

بركة حبابته وأمه لي بذكره يغتنين.

(٣)

قراءة في ديوان شفاء صبّانة (حديث الذكريات)

تعد شفاء بنت القاضي محمد أحمد بكران الصبان (شفاء صبّانة) من أبرز نساء سيئون الطويلة اللاتي قلن الشعر الشعبي في حضرموت. وهي من مواليد سنة ١٩٣٧. وتعلمت قراءة القرآن على يد أبيها، قبل أن تلتحق بمدرسة النهضة التي أكملت فيها الدراسة المتاحة حينذاك للبنات في أربع سنوات.

وقد تأثرت شفاء كثيرا بجدتها الشاعرة المشهورة نور (قدرية) عبد القادر حسان، وقالت مثلها الشعر في سنّ مبكرة. وعندما تزوجت شفاء من عبد الرحمن أحمد جواس (بوخالد)، مارست مثله أعمال التجارة، لكن في البيت فقط. وأنجبت منه ثمانية أولاد توفي خمسة منهم في سن الطفولة، وتسع بنات توفيت منهن أربع في سن الطفولة. وتوفيت هي في الأوّل رجب من سنة ١٤٣٥هـ

الموافق للثلاثين من إبريل سنة ٢٠١٤م، ودفنت بجوار زوجها في مقبرة بامخرمة بسيئون.

ويُعدُّ أخوها عبد القادر الصبان من أشهر أدباء سيئون، أما شقيقها علي محمد الصبان فهو الصحفي المشهور الذي أسس سنة ١٩٦٠ (مؤسسة الصبان وشركائه للتوزيع والطباعة والنشر) في عدن. كما أن شقيقتها فاطمة صبانة ألفت هي أيضا عددا من القصائد الشعبية التي لم نتحصل منها إلا على قصديتين بعثهما لنا ابنها عبد الحكيم محروس. ولها أخت ثالثة، خديجة، والدة الأستاذ عمر عبد الله حسان، وتقول هي الأخرى الشعر.

وبالنسبة لقصائد شفاء صبانة، فقد بادر ابنها الأستاذ طلال عبد الرحمن جواس بجمعها منذ سنة ٢٠٠١، وطبعها في ديوان بعنوان (حديث الذكريات).

في هذه القراءة، بعد أن نتناول بإيجاز كيفية تعبير شفاء صبّانة عن حبها للغناء و(السلا) في عدد من قصائدها، سندرس بعض قصائدها الغنائية العاطفية، وطريقة تأثرها فيها بقصائد حسين

أبي بكر المحضار. بعد ذلك سنتناول بشيء من التفصيل الكيفية التي عبرت فيها الشاعرة عن الشأن الخاص والشأن العام في ديوانها، وسننهي القراءة بتقديم بعض الأمثلة من القصائد التي تناولت فيها شفاء صبانة القضية الفلسطينية.

أولا- حب الغناء و(السلا) في قصائد شفاء صبانة:

من المؤكد أن شفاء صبّانة قد تأثرت كثيرا بجدتها الشاعرة الشعبية المشهورة نور قدرية، التي غرست فيها حب الشعر والغناء و(السلا). (انظر دراستنا السابقة عن نور قدرية) وقد عبّرت الشاعرة عن حبها للغناء في كثير من قصائدها. ففي قصيدة (حنّيت يا نوب في الحِمّة وفي الوديان، ص ٢٨)، مثلا، تتحدث الشاعرة عن حبها للغناء والشعر وتربطه بكرهها للحزن، قائلة:

با شل صوت الغناء بالدان بتنسم

وغنّ يا هاجسي شل الحزن والهم

لي قلب سالي لا يحتمل لأحزان

وفي قصيدة أخرى تقول (ص٤٠):

غن يا هاجسي واترنم

شُف بنات آدم بجنبك جم

والبخاري بينهن مرشن

باك تغرف من غبب سيلان

وفي قصيدة (طاب السمر قل دان)، التي تتناص كثيرا مع قصيدة الشاعر الحضرمي حداد بن حسن الكاف، تصف شفاء صبّانة جوانب من جلسات الغناء النسائية في سيئون، وتقول (ص١٥):

حصلت في سيئون كل شي زين وراحة القلبي

نسوان فيها دوب يتسلين بالليل والعصري

باصواتهن لو كان ميت بالكفن يحيين

فسحت في العودة ومالي والدكاكين

وابطيت واقف في ظلالي قيم وقفت في حلي

باصواط زينه كلهن شلين ولا قدرت اخطي

من شافنا قايم يقول الشخصي باطي قيم

قت له تسمع للمعالق في الفناجين

مالوم من هو ما غمض بالعين دقات في القلبي

شفته شعوره كلها اهتزين بالخوف والرعبي

سبحان من خلق وصور ذا الجمال الزين

خايف تصيبه عين لا يلحد في الطين

وفي قصيدة (من بعد طول الغياب، ص٣٦)، تعترف شفاء صبّانة أن حب الغناء و(السلا) راسخ في شخصيتها ولا تستطيع الفكاك منه، وتؤكد كذلك تفضيلها لأصوات الدان التقليدية، وتقول:

حب السلاء والغناء ما هي بخيره علي ذلا فضيله

لو حد مساعد معي بغيت بألف كتاب

يللي تشل الغناء شاقتني الأبيات لي هي دويلة

وفيه مالي سنع وقفت تحت الباب

وتذكر شفاء صبّانة أن قول الشعر قد سبّب لها كثيرا من المتاعب، بما في ذلك الكراهية والحسد. وتعبّر عن ذلك في قصيدة (يا محلا اللقاء بلا ميعاد، ص٣٢)، التي تبدي فيها استعدادها لمساجلة من يريد مبارزتها في قول الشعر؛ وتقول:

باطلب ربنا يغفر خطايانا شو نومي زعل ذا الوقت ما جانا

من كثر الحسد والبغض شفته زاد

ذا كيف السبب في الناس ذكروني شوني ساليه من يوم ربوني

شو ذا التاريخ وشهادة الميلاد

هاتوا كل هو من با يجاوبنا لي با يحكم الأبيات والمعنى

وسمحوا له يشل الكاس يا من زاد

وفي القصيدة التالية (من لا يحبك لا تفكر فيه، ص٣٣)، تعبر كذلك عن المتاعب التي سببها لها ولعها بالشعر والغناء، وقالت:

وباطلب الرحمن لي يغفر خطايانا قلبي مولع بالغناء والنوم ما جانا

كل من طلب مولاه لازم يعطيه

وفي قصيدة (با مجلسي عند حور الحسان، ص٥٨)، تبيّن الشاعرة أن تنظيمها لجلسات الغناء، التي يتم فيها توزيع أنواع مختلفة من الشاي، كان بمباركة والدها، وتحدثت عن الجلسات النسائية قائلة:

وشل يا هاجسي توك تعكر وقل اكبر على الشيطان لغبر

وجاء داعي في الروياء دعاني

وبعده عندما نادني نبهته فهمته من جوابه واستلمته

رجعت في الهواء في حيث كاني

وسال الدمع من عيني ويجري شبيه السيل لاحد بايسقي

وطار النوم عل ولعاد جاني

وقال لاتخافين واستقلي رسائل بلغي سالم وقدري

نبا جلستكم تعتاد ثاني

وني خليتها في وسط قلبي وقلت بلقي لها تاريخ رسمي

ابويه هو وجدي جا دعاني

وجاء بعد العشاء عاني وطرّب وقال الحلم يم خالد تقرب

جبر الله يومه ماجفاني

قعت روحه في التكه حشيمة ودخلو بالسفر كمين عينة

وشاهي حومري واشكال ثاني

ثانيا- الشأن الخاص في قصائد شفاء صبانة:

تطرقت شفاء صبّانة في كثير من قصائدها إلى أمور مرتبطة بحياتها العائلية والخاصة، وفي بعض الأحيان بشيء من الجرأة إذا ما أخذنا في الاعتبار القيود التي يفرضها المجتمع الحضرمي عادةً للحد من سماع صوت المرأة. فمن الأمور العائلية التي تحدثت عنها شفاء صبّانة: مرض زوجها، بو خالد، إثر أصابته بفتق واضطراره لإجراء عملية في مستشفى سيئون، وقد وصفت زوجته حالته وحالة العائلة عشيّة إجراء العملية على النحو الآتي (ص٩):

يا الله أطلبك يا مولاي عالم ظنونه

رب فرّج على المهموم كثرت غبونه

صار يصري كما البلهان ضاعت ذهونه

عندما قرر الدكتور بايقطعونه

في نهاره وطول الليل تطرح عيونه

يا الله عسى تحمل معه بالمعونه

والزم الصبر ما قد قدّر الله با يكونه

با يقع يسر بعد العسر ما يفحصونه

شلوا أولادنا ذا بطل ما ينظرونه

تسعه عشر نفر في الدار ما تحزرونه

وبعد مرور سنين طويلة من تلك العملية، وحينما توفي بو خالد، رثته أرملته شفاء صبانة بقصيدة، قالت فيها (ص١٣١):

أبديت بالمولى كريم الوجه لي حبله مكين

يا غافر الزلات رب ترحم جميع المسلمين

قال الذي سهران بيّت الخلائق راقدين

فاض دمع العين سال يطرح والقلب الحزين

ولا حسبنا الموت ذكر الموت منه غافلين

ذا يومه المحدود يا حيّا بحكمه واليقين

ودخل عليه الموت شل روحه ونحنا جالسين

رجال والنسوان حد بيسره قاعد واليمين

ولا نكرنا شي غير النور مشرق في الجبين

ودّعته الرحمن والمختار خير المرسلين

سنين لي مرّت علينا كلنا متهانيين

وكون تحت الأمر دائم للطلب متوقعين

بدعي إلى الرحمن رب يسكنه جنان الصالحين

دنيا الندم عبرة وذلا الناس شوهم غافلين

وتعبّر كذلك شفاء صبّانة في قصائدها عن تعلقها بأخيها الأديب عبد القادر الصبان، وبشكل أكثر بشقيقها الصحفي علي، الذي رثته بقصيدة قالت فيها (ص٨):

الحمد لله لي ما من قضاه اعتذار

وتسامح العبد يا مولاي والعبد جار

اليوم جاني خبر مفجع زي الانفجار

وبعد قالوا حبيب القلب شيه استخار

وضاع عقلي عليّ والدمع مثل المطار

والعيش ما عبر والحلو في الأثم قار

عزمني الصبر يا مولا بجهد القرار

وراح ودّ الهداية من خُلق كذه بار

وقيم بأهله وبرحامه ومن كان جار

وطاهر القلب ما تطلع عليه الكدار

ولا يعابر على العاقل ولا عالصغار

ودوب حامل كتابه ليل ولا في النهار

ودّعته الله مقصده عند حور النوار

الله يسكنه في الجنات خضر الشجار

وتتناول شفاء صبّانة كذلك محبتها لأبنائها جميعا، إلا أن ابنها محمدا نال القسط الكبر من البروز في قصائدها؛ فهي لا تخفي تعلقها به عندما غاب عنها خلال فترة تجنيده الإجباري في خرز، وقالت في إحدى قصائدها (ص٤٧):

وبأطلب الله ربنا قسّام وتعينني يا فرد يا علام

شوّقت لك يا بني عليّه طالت لأيّام

عد الدقائق والثواني زام من بعد الزام

من بعد ما بتيت حسيته اثنا عشر عام

وبدعي مولاي با يحميك من الآلام

انته ودفعتكم ولي بتت دفع لقدام

ما لوم من يبكي علي صيبه ولا يلتام

الصيب له علقة ولو بمشي على الأقدام

إلى خرز أو غيرها ولو هي مسافة عام

ولا قدرت أصبر فراقك قطع الأجسام

ودائم الأصداع في رأسي من التفكير والأحلام

كما أنها تناولت العذاب الذي أصابها بسبب تجنيد ابنها الأكبر خالد الذي تم أخذه من الشارع إلى التجنيد من غير أشعار للأهل بذلك في قصيدة أخرى، مزجت فيها بين الشأن العام والشأن الخاص، إذ أنها انتقدت فيها تجنيد الشباب الإجباري وطالبت بإلغائه، قائلة (ص١١٠):

المعسكر ربٍّ يلغونه وكل حد لأهله يردونه

دمع عيني به يسقونه شرب الحمه مع الوديان

شو نهار الحول شلوهم ريتهم بأوراق شعروهم

بعد حتى الأهل فجعوهم صرت ئصري عينة البلهان

شو حبيب القلب ودّعته كم وكم صاليت كبّرته

ذا قضا مكتوب من ربه لا متى با تنجلي الأحزان

شلو الأولاد بالقوة رب فيهم تحصل النصفه

ساكته ما عندنا قوه مِرْتِبِك دايم ونا فزعان

ومن بين القصائد لشفاء صبانة تلك التي صاغتها مدحا لأحد صاحباتها (فاطمة بنت عبدالرحمن) قالت فيها (ص٦٨):

شو ذي سنه خير باتدخل علينا وواسع الجود باينظر إلينا

من مد بيداه ماترجع خليّة

بت عبدالرحمن رب لاغاب ذكرش واليوم في الدار شي يامكبر اسمش

وفيش لخلاق والنفس الغنية

الأهل والجار شي كلن دعاء لش بالعافية لش بايستتر حالش

الله بايحفظش من كل اذيه

بانطلب العفو عزمتِه بانولي وتقول حسره على لأصحاب وأهلي

على المجالس والروحه عشيه

وشو بوعمر جنبها ما بايقصر في ساعة الضيق عند الكل يحضر

يتمّ القصد له في كل حيه

وقالت الوالده قلبي تحسر ماحسره الا على من هو تأخر

ياريتهم عندنا في كل حيه

يافاطمة لامتى قرت عيونش وفي جميع السقل باينفعونش

وبالعافية باتعتجب بالفتيه

ومن الشئون العائلية التي تطرقت لها شفاء صبّانة: بيتهم في حي مريمة. ومن المعلوم أن الدار القديم الذي اشتهرت فيه عائلة بو خالد يقع في أحد الأحياء القديمة وسط مدينة سيئون، بالقرب من مسجد طه. ومثل معظم سكان المدينة طالبت الأسرة بقطعة أرض في المخططات السكنية الجديدة. وقد عبّرت عن استيائها من مماطلة إدارة الإسكان التي لم تمنحهم قطعة أرض إطلاقا وبعد فترة انتظار طويلة، اضطر زوجها لشراء قطعة أرض من ماله الخاص لا من الدولة وذلك في مخطط حي مريمة شرقي سيئون

الذي وزعوه على من شاؤوا في تلك الفترة وحرم هو منها. وقد وصفت دار مريمة لصديقاتها في قصيدة قالت فيها (ص٩١):

هـو مـن معنـى بايشـل الخـط لـي وبعـد بـا يصـله لا شـاعرذكـي

بيني وبينه شو الخواطر صافيات

قـل لـه بغينـا صـلح فـي مـا بيننـا وتقول لصحابك ونـجيب اصحابنا

ويكون مجلس في اراضي واطيات

لازم بغينا حل فـي الوقـت القريـب ويغيب نـجم النحس والخاطر يطيب

ولعاد باذكره لي كذ فات فات

مجلس يقع في خير ما يحصل زعل من بعد شـرب القـار بانشـرب عسـل

ماغير نهذف بالصوات الهاديات

والفين حيـا مـن بغـى عنـدي يجـي ونـي علـي بـدفع وبخسـر كـل شـي

بلقي لهن محموص وعيَن ثانيات

وقلــت بالقيــه ســنوي ذا لكــن وبـدعي المـولى تطـول أعمـاركن

بالسلامة يحضرون الباقيات

باندر بكن لا بيت محكوم البناء ومن جلس يومين يشعر بالهناء

ولعاد فكر في البيوت الباقيات

وقال ذا بيت السعادة والهناء وقلت له معي تاريخ من يوم ابتناء

ولعاد بحكي له علائم ظاهرات

جلست فيه شهرين قبل الكهرباء وبعد يشعل نور في كل محضرة

ولا دريت ايش الضواو الزايدات

فيها مساجد بين ليمن واليسر وآيات مكتوبات في كل الستر

والخصم والشيطان منه مبعدات

وفي قصيدة أخرى تتحدث شفاء صبّانة عن تفضيلها لمخطط مريمة على مخطط (الحصي الأربع) ومخطط (الشيشان)، قائلة (ص٩٢):

خرج ذا فصل والثاني يقول الشاعر الفنان

طلعت اليوم لا جثمة طرقها كلها قيزان

طرقها كلها صعبة فيها الطين والحصيان

ولا حصلت شي فيها ولا شجرة ولا سقلان

عليّه دخلت الغدراء رجعته مرتبك فزعان

ولاحد بايكلمنا ولا حد تحتهم جيران

وغير أهرار تتعبر وخايف لا تجي كلبان

وشو كل من بنا فيها تكلم قال أنا ندمان

وفي قصيدة أخرى (ص٩٥)، تمدح الشاعرة حي مريمة، مؤكدة على طيبة سكانه وكثرة مجالس السلا والهناء فيه، وتدعو صاحباتها للحضور قائلة:

يا أم محمد وأم عادل وبا نعوّد مجالسنا

نلقي مجالس خصوصية ونجيب خالة وعمتنا

ويا خير مجلس وقع بكره مجلس سلا ما تغيّبنا

ما غير نضحك ونتبسم ونذكر أيام ما كنّا

وبعد با أوصيك يالعاني في الحال بلغ رسالتنا

بلغ سلامي إلى الشاعر جواب مخصوص له جبنا

وتخبرت كيف جيرانش هم بدو أو جاو من صنعا

جيراننا مقدر أوصفهم في كل ساعه يساعدنا

في ساعة الضيق والزره في الحال تو يدركو نحنا

وناس محسن خواطرهم وأسلوب فيهم مع معنا

ومريمه نورها شارق وفين لي با يخاطرنا

فيها السلا والنسم دايم في الخير دايم تباشرنا

ومن بغا ذبر با نغلب ولعاد با حد يجي معنا

ولا نبا في الحصي لربع فيها الغداري تفزعنا

ومن أبرز الموضوعات الخاصة التي تتناولها شفاء صبّانة: ما تحدثت عن آثار الشيخوخة في عدد من القصائد لاسيما حينما تقدمت في العمر. ففي القصيدة الآتية، مثلا، تتحدث عن تراجع الذاكرة وحاستي النظر والسمع، وتقول (ص١١٤):

سمعوا قول من شاعر قول الشاعر الفنان

بتكلم على الماضي في كل ما مضى ندمان

شوها جزعت الشّبه فينا السهو والطغيان

ما نفكر في العقبه ولا أذكر لهبة النيران

ويا مولاي سامحنا حل مطرحي في لكفان

في السبعين والتسعين عاد الديم والعظمان

فينا كل شي يظهر في المسمع وفي لسنان

واليد ترتقل دايم والغمشه على لعيان

وحتى الذاكرة تنقص عندي يكثر النسيان

لا تزعل من العاقل مثيل الطفل والسقلان

وفي قصيدة أخرى تطرقت شفاء صبانة، بطريقة فكاهية، لتراجع نظرها بسبب إصابتها بالمياه الزرقاء في عينيها، وذهابها إلى الدكتور (محمد أبوبكر باكثير) لإجراء عملية التنقيش، الذي إجراء لها العملية، وقالت فيه (ص١٢٨):

كيه اسمعوا قول من شاعر قصة معه ابتدا فيها

في العين قعت غمشة ولا دريت إيش وقع فيها

يا ناس بسال وبتخبّر وأدعي إلى الله يشفيها

والحمد للواحد القادر أوجاع ما شي قعت فيها

قد كنت أجلس قدا الشاهي بعض الفناجين نمليها

وبعض نردف من السكر وبعض ماشي يقع فيها

واحد والاثنين ماعرفهم وكعلسه جم قعت فيها

وبغيت دكتور لي يعرف بسأل على لي يداويها

ودخلني الخوف وفزعته والمطحنة لي نقرتيها

دكتور رحنا إلى عنده بس لا تخافين ماء فيها

دكتور يا محسن أخلاقه لازم تحاليل نلقيها

للدم تحليل باللازم من شان صحتش راعيها

سرحي بالصبح بالباكر وبعد الاوراق هاتيها

سرحت للمختبر بدري الأوراق ماشي خلل فيها

والعملية با تقع بكرة ساعة ثنا عشر نلقيها

يصدق ولا خان في وعده لوعود لا قال يوفيها

قد كنت في خوف فزعانه وقال الأعصاب هدّيها

والعين شيها تقع شهبه ذهني من الماء يقع فيها

وتجنبي من قدا السريه وتراب ذهني يجي فيها

وقال في الفرض لا تسجد وفروضها بعد تقضيها

دكتور شاطر ومتعلم وشروط في كرت يلقيها

والحمد لله تو شفته لي وقت صارع وصاليها

ثالثا- الشأن العام ونقد الظواهر الاجتماعية في قصائد شفاء صبانة:

إضافةً إلى الأمور العائلية والشخصية تناولت شفاء صبّانة في قصائدها عددا كبيرا من الظواهر التي تقع في إطار الشأن العام والتي برزت في عصرها. فقد انتقدت، مثلا، بشدة ظاهرة تعاطي القات بين الحضارم، وأسهبت في الحديث عن سلبياته، وقالت في إحدى قصائدها (ص٦٣):

كيه اسمعو قول شاعر لقا مجلد ونســـخه

وادعي عسى القات يعدم ويغيب من كل بقعه

وفي مطـــرحه لقُّـوا البُـن يافع وخضره

كمن ولد شاب شفته ملقـي في اللثم صره

وعاد منظره موذي ريته تلثم بغـــتره

هو سبب الخسف فينا حصلت مصايب وسرقه

وعاد قيمته غالي إسراف هذه وسكره

وان حد معه فلس زايد يلقي مساجد وصدقه

وأمراض شوذا يسبب يلقي في القلب دقه

وفي القصيدة التالية (ص٦٥) تحذر شفاء صبانة مرة ثانية من القات، قائلةً:

تحذّر من غصان القات جنّب وشف كل من بلي فيهن ندامه

وحافظ عافروض الخمس دائم صلاة الفجر قم حل الأذانه

وفي قصيدة أخرى (ص٦٩)، تقول:

ذا فصل والثاني نحذر كل من عندي حضر

احذر من أهل القات ولا أهل السكار

النفس لا تتبع هواها شف هواها الأخطر

تازيك عالغيبه وعالسرقه وتبتع كل ضار

لي يوكلون القات في محنه ومبلي بالصرر

وبا يسبب لك مرض في السكري ولا صفار

حريمهم يشكين قالت طول ليلي في سهر

وصوت له مزعج شبيه الثور أو مثل الحمار

أول بدايتهم تقع عشيات ولا في سمر

بعد الضحك والزندقة بايطعمون الحلو قار

مادام عادك في النفس حاسب تولي في خطر

اهتم بذكر الله دائم في الليالي والنهار

وفي قصيدة أخرى تربط الشاعرة بين القات وانتشار الرشوة في المرافق الحكومية بشكل عام، ورأت في ذلك أحد أسباب تأخر حصول الأسرة على بقعة أرض سكنية، فقد قالت في القصيدة (ص٧٠):

شونا حِرت في ذا الزمن واتكلمت من جور ما بي

باتكلم وما بي فـــزع يا ناس سمعـــوا ما معي

شونا لي سنه في سنه طالب بذبر ما جبت شي

يعطونه لكل من بغوا حتى طفل عاده صبي

كل ما جيت كلمتهم قالوا لي سكت يا الغثي

حق القات لازم نبا ما نقبلك كيسك خلي

يهذف لي بصوت الجفا قلت حياء ما يستحي

يا ريته ذكر لي مضى في زام الصبا جار لي

ياثرها الدراهم تغر يغدرنا وهو صاحبي

ذا أسرار ما بينهم خذ ذا لك وهات ذاك لي

شونا إنسان عاقل مقل لا الكعكي ولا العولقي

خافوا كان من ربكم كيه حسبوا لليوم العكي

وفي قصيدة أخرى تنتقد فساد القضاء وتعزو ذلك إلى انتشار الرشوة بين القضاة؛ فقد قالت:

حكموا بحكم الشريعة ولكن على الناس مره

ومن سرق قطبوا إيده احكام كذ قالها الله

النفس بالنفس لازم ماشي محامي ورشوه

إما المقل يتعبونه ويصيح من كل بقعه

يهذف ولاحد نصط له قالوا مصرفق وخلوه

جاب الوثايق صحيحه وقال سبعين غلطه

حرام شوذا عليكم وعنده سقالين دقه

قلت له ابشر ما يسرك وبا يجازيهم الله

وفي قصيدة (ولا حد ينهي المنكر) تمزج الشاعرة بين ظاهرة الرشوة في المؤسسات العامة وعددا من الظواهر السلبية في

المجتمع، بينها ارتفاع الأسعار، والسينما التي تعدها من المنكرات، وتقول (ص٨٥):

وجلسوا في كراسيهم وشو كلين يتبختر

وياثرهم بغوا رشوه ويرطن لأجل ما تظهر

ولا حد ينهي المنكر

بغينا السينما تبعد وتبعد قبل ما نخسر

وفيها أفلام غربية ولي يرقص ولي يسكر

ولا حد ينهي المنكر

وتبعد كل موذيه في الأسواق تتعبر

من الأسواق منعوهن وفين الجيش والعسكر

ولا حد ينهي المنكر

بغينا الرخص في الأسعار إذا قد ربنا قدّر

علينا رخصوا الأسماك هو الرزمع السكر

ولا حد ينهي المنكر

وقالوا كثرت السرقات سرقوها ولا تظهر

ولا هم قطبوا آداهم لكان الناس تتحذر

ولا حد ينهي المنكر

وتنتقد الشاعرة كذلك إقدام السلطات على رفع تسعيرة الكهرباء التي تسببت في ارتفاع قيمة الفواتير. ففي أحد الأيام زارتها إحدى النساء في دكانها وحكت لها قصة أوراق الكهرباء وارتفاع التسعيرة، وذكرت لها غضب زوجها عندما رأى فواتير الكهرباء وكلفة الاستهلاك عليها على الرغم من الانقطاع المتكرر للتيار، فقالت شفاء (ص ٦٤) قصيدة تعبر فيها عن مشاعر المرأة:

يا ريتني شعقتهن وقلت لك ما شفتهن

إن كان بسلى الضبضبه

وطلعت أرقام جم مديون ماوفيت الذمم

ولعاد عندي مقدره

شبان ساروا في كلف وقال عدي ما كفت

ولا كفت المشاهره

باسأل على لي يكتبون أو هم سقل ما يعرفون

يا هي سلوك مغيّره

وتسع ساعات تنطفي ثلاث لي هي تلتصي

ولا نفك شي مروحة

الشعب متأثر أليم ويقول علمك يا عليم

ما تنكرون المنكره

ومن الظواهر الاجتماعية التي ذكرتها الشاعرة شفاء صبانة بهدوء: تعدد الزوجات وما يترتب عليه من سلبيات كثيرة في حياة الأسر، لاسيما الزوجات والأطفال. ففي قصيدة طويلة تتميّز باعتمادها على حوار بين أم وابنها وولد وأبيه، نقرأ ما يأتي (ص١٠٥-١٠٦):

واليوم والدك له سنتين مني هل هو في الأرض ذي ولا نفاها

ولا سألته على خويه وأختي في وسط قرية قعوا ما حد قداها

وليش ثنتين في العقد تلقي وبا يعذبك ربي من قداهـا

ويا ريت ملقي لهن شي خرج رسمي وتشتغل وترد حتى عشاها

ويا ياب لمّا متى من ذنب تعصي وأمور جم عاصية تقرب قداها

وأصحابك اليوم لي يسكر ويرشي دائم وهم في غلط ما حد نهاها

وقال آسف أنا ندمان يابني كمّين رشوة وكل واحد خذاها

نمشي غلط دائم نسرق ونرشي والوالدة وافقت ربي هداها

ونجتمع كلنا في بيت جدي واديارنا الخاربة كمّل بناها

وبا يطرح الرزق والبركات ربي وآبارنا الواقفة ينبع مياها

ومع ذلك، من اللافت أن الشاعرة شفاء صبانة التي انتقدت المترتبات السلبية لتعدد الزوجات، فإنها لم تتردد في توجيه نقد لاذع لزميلاتها النساء في عدد غير قليل من قصائدها. وترى الشاعرة أن رغبات النساء وحبهن للمظاهر سبب بروز كثير من العادات الاجتماعية السيئة لاسيما في الزواجات. فهي، في القصيدة الآتية مثلا، تحمّل النساء مسئولية ارتفاع تكاليف الزواج، قائلة (ص٧٦):

هذا فصل والثاني للرجال والمرأة

فاعل خير بتكلم شفت الناس في زرّه

ما حد ينهي المنكر وشو النسوان في بطره

والرجال يتكبد من بقعه إلى بقعه

وليه ما قد ريهذف يحس في حلقه العبرة

شو معنا ولد واحد با خطباه بالسرعة

وبالقي عرس فاخر بغيت الشرح والسهرة

باغرفته منقوشة وخل البخل واللقعة

وعشرة روس ما تكفي غداء الظلة مع الصبحة

كل الناس تتدين وعندك تعتبر غرقة

كذب دائم وماطلهم وقل له الوعد لا غدوة

على سمعتي با حافظ ولا مالي ولا تركة

وقالت باكسى الموضة هتها دين أو رشوه

وقالت ما بغيت أهلك؛ كلفوني وني زقره

قلت له روح طلقها حتى تحتها عشره

وذي قلة حيا فيها ولا خافت من العقبة

شفهن دينهن ناقص لهن كذ زيّدوا مدره

وتمشي دوب بالبرقع وساكت ما بغيت أدّوَه

وفي قصيدة (كلمة نصح وعتاب للنساء ص٨٧)، تكرر شفاء صبّانة نقدها للمرأة وطريقة لبسها، وتحملها مسئولية عزوف الشباب عن الزواج، وتقدم لها مجموعة من النصائح:

يافاعلين الخير با كم كل عاطل تنصحون

قولوا لهم بالصدق لي هم للنصايح ينصتون

وخصوص في النسوان لي في لباسهن يتفاخرون

وحذروهن من كساء الموضة ومن كشف العيون

والمشي في الاسواق ذلا إثم به با يكسبون

يندرن في قيلاً وقالي كلهم يتغيبون

ومن تكاليف النساء شبان جملة يشتكون

قالوا عوايد زايدة رفضوا لا يتزوجون

أهل الولد والبنت لازم عليهم يلطفون

في المهر والشنطات ما يمكن بهن يتفاخرون

وحد معه مُقدر وفيهم بعضهم مايقدرون

والرقص في الباصات ذي قلة حيا مايستحون

مشي النساء في الليل شوكم للخطر تتعرضون

خايف يجي شيطان أو تحضر عصابة يهجمون

كثروا عيال ابليس لي يقتل وفيهم يسرقون

امشوا على سنة محمد كلكم باتربحون

ومن الظواهر الاجتماعية التي برزت في عصر شفاء صبّانة، التي كانت تمارس بيع الملابس في بيتها، ووقفت الشاعرة بقوة ضدها: خروج النساء للتسوق في الأسواق بمفردهن أو حتى برفقة أزواجهن أو أقاربهن، وعبرت عن رفضها في قصائد عدة منها هذه التي تفصح فيها عن موقفها المحافظ تجاه كثير من العادات النسوية الجديدة، والتي قالت فيها (ص٨٨):

قال الذي سهران بيت والخلايق راقدة

وحرت في بعض النساء فيهن ملابس كاشفة

مالي سنع فيهن ولا اعرفهن سكتة ساكتة

وبعد قالوا لي كساء الموضة شفي يا عاقلة

شي عاد حنانا إلمّا الغبط منتي دارية

عاد الشعر تصبغه تتبدل وترجع ثانية

وقلت لهن يابختكن يابختكن بالآخرة

قلدتوا أهل الغرب لي ما يحسبون التالية

يدخلن في الأفلام تقعد في الدوايـر كاشفة

تمشي مع الشبان تتهذف ولاهي دارية

خالفتو السنة مشيتو في الطريق العاصية

ألقوا مجالس خيـر قروكن ولاشي فايدة

ما تنفع الشبة ولاتنفع لباس الفاخرة

يا كم وكم من ناس راحوا من قصور العالية

الله يقنعكن من الدنيا وسيروا في الطريق الهادية

وفي قصيدة أخرى تناولت هذه الظاهرة بأبيات قالت فيها:

وحِرت في ذا الزمن ضاعت عليّ لأفكار

ولا عِرفت الناس لا الخيّر ولا الأشرار

وناس في صدر المجالس وقلت ذيلا أخيار

شلوا نساهم في وسط لأسواق شوذا عار

وشو النساء خزوه وعوره سترها ألا الدار

وقال لي ذلا عنيّه خلها تختار

شيطان ساعدها ونشطها وهي تغتار

ولعاد بالوم النساء واللوم فيكم ما حسبتوا العار

تتهذف وتتكلم وقالت كم ثمن الأسعار

وشلت الهاتف وتتكلم وذا الهاتف يشل لأسرار

كيد الناس معروف تتحيّل وتجيب أعذار

من زمرة الشيطان شف كثرهن في النار

شف في الميه وحده تحصلها من الاخيار

وقال شلّيه ما با نختلف وبا ساعدك في لأسعار

وانسجاما مع موقفها المحافظ تجاه المرأة وعاداتها الجديدة، تلجأ الشاعرة للرجل وتطلب منه ممارسة التشدد والصرامة تجاههن، وتنصحه قائلة في قصيدة (الحكم للرجال، ص٨٩):

سمعتك با تسقط وبعد الحلو تشؤب قار

ولا حسبت للوم شو هذا الزمن غدار

الحكم للرجال ولا يعطي النساء لشوار

وانته تحذر قبل ما تخرب عليك الدار

وكنت أوثق بك وقلت هذا جمل هدّار

لكن بعد اليوم با حافظ على الأسرار

وسقطت من عيني وخايل بك كما لهرار

وصلوا على جد الحسن بذكره شرقت الأنوار

وعلى الرغم من أن شفاء صبانة من مواليد سنة ١٩٣٧، وتوفيت سنة ٢٠١٤، نلاحظ أنها تطرقت في قصائدها لقضايا معاصرة جدا ولم تظهر إلا في العقد الأخير من عمرها؛ مثل إقدام الملاك على القضاء على النخيل بهدف بيع الأراضي للبناء السكني والتجاري، التي أدت إلى تقليص المساحة الخضراء في مدن وادي حضرموت بشكل لافت، ففي قصيدة (النخل يشكي ويبكي)، تحصي أولا فوائد النخلة، ثمّ تقول على لسانها (ص١٢١)؛

أبديت بك يا إله وتعينني ليلة أظوي

ويقول من عل نومه بالليل بيتت ادعي

والنوم ولعاد جانا والدمع عالخد يجري

تـــاريخ للنخـــل شـــوها يانـــاس مابقـــد راحصـــي

ويقول حرموا شبابي من غير شي ذنب عندي

ويقـــول كلـــي منـــافع يانـــاس مـــن يـــوم نبـــدي

وأنواع في التمر شوها فيها المديني وهجري

قـــالوا بغينـــا مكانـــه وبانســـوس ونبنـــي

وبهذلوا بي وحرقوا كل من عبر صار يصري

يانقصـــكم لا عدمتـــه باتصـــبح النـــاس تصـــري

لاننـــا نفـــع خـــالص ماشـــي ضـــرر صـــار منـــي

كـــل الـــدباديب توكـــل والطيـــر لـــي هـــو معلـــي

أشـجار ليـه جميلـة تتظلـل النـاس تحتـي

التمـر نعمـة مـن الله لكـن كرمـه ربـي

ودهلوا البيع شوهم عندين ماحد يزكي

ولعـاد شـي سـمن ليّـه ولعـاد لـي ملـح تلقـي

منـي مسـارف وتفلـة وحبـال بـالليف تلقـي

منـي سـنة توكلونـه لمـا يجـي خـوه لخـري

لاكـذ سـقطته ومتـه اقبـال تلقـون منـي

ولـي رزامـة حشـيمة ازيـار يملـون منـي

وتكـون ملـة جميلـه ويطلـع الخلـع تحتـي

واسـباي كمـين عينـه والشبشـبة فضـح أصـلي

وتكـرم الضـيف منـه ويقـول ذا رد حسـي

لـو كلـت شـهرين منـه قـوة إذا قمـت صـلي

في التمـر صحه وقـوة مـريس للطفـل تلقـي

كذ كثـرت أمـراض فيكم يـوم قصـرتوا أكلـي

أيـام زام الحراثـة كلـين عالنخـل يـدري

كـرزام والطلـع فـيهن والفحـل مرعـاد يلقـي

لا شـعلت النـار منـي كلـين يوكـل ويشـوي

لـي كلهـا النـاس شـهدت واشـهد شـمالي ومصـري

وطـب الامــراض شــونا بقــدرة الله يشــفي

وقــال لــي ذوق حــالي أســبوع فــي أثمــك يتمــي

حتى العجم يرضحونه للماشيه شحم يلقي

شــف لاظهــر لــه قواعــد ولــي يفخــط يغنــي

واليوم قال اظلمونا ولعاد شي عتم تحتي

وقطعــوا المــاء عليّــه ذلا نســوا الجــود حقــي

واليــوم لــي ســيط ظــاهر للجــوع شــونا مهــدي

لانــا كرامــة لمــريم جــاء الأمــر عالجــذع هــزي

وفي قصيدة أخرى بعنوان (تدريس من غير راتب، ص١٢٠)، تتطرق شفاء صبّانة لظاهرة جديدة *أخرى*، عدم إنصاف المدرسين وتأخير مرتباتهم بل وانقطاعها، وقالت فيها:

يا رب تفرج علينا زاد الكلف والمتاعب

لي وقت يا ناس درّس تدريس من غير راتب

اسرح من الصبح بدري وحل وقتي مواظب

وصحت في صحت شونا طلعت صنعاء ومأرب

وبعد واحد سألنا حد لك صداقه وصاحب

ولهم جواسيس شفهم يدخلون المكاتب

كلين في الجيب يطرح ما يحسبون العواقب

ملكين بيمنه وأيسر والله فوقه مراقب

يا ناس من هو مدرس تعطونه الحق واجب

ومن ظلم أو تحيّل شو لازم إنه يحاسب

واحساب في القبر عاده إحناش تجيه وعقارب

كل التلاميذ تبكي قالوا مدرس مواظب

ويشرح الدرس دايم بأسلوب ما هو مشاغب

ودّسوا تسعة أشهر ولا عطوهم رواتب

واجب علينا ندافع ويجتمع كل طالب

وبلغوها الرئاسه وزير وإن كان نائب

حكموا بحكم الشريعه ما هو لعب بالمذاهب

شو دعوة المظلوم تقبل وباتجيكم مصائب

رابعا- الأبعاد العاطفية في ديوان شفاء صبانة:

كتبنا في دراستنا عن قصائد خديجة الحبشي أن الشعر الغنائي يُعدُّ وعاءً مثاليا للحديث عن الحب والعشق والوصال، وأن معظم مؤلفي القصائد الشعبية الغنائية في حضرموت تغنّوا فيها بالحب والعواطف، وأن ليس لهذه القصائد علاقة بتجاربهم الخاصة في الحياة. فحسين أبوبكر المحضار وحداد بن حسن الكاف، ومحمد عبد القادر الكاف تتجاوز قصائدهم الغنائية تجاربهم الذاتية؛ وما يضمنونه من أحاديث عاطفية لا يرتبط بالضرورة بحياتهم وتجاربهم الخاصة.

وكذلك الحال بالنسبة لشعر شفاء صبّانة، فديوانها (حديث الذكريات) يتضمن قصائد كثيرة تتغنى فيها الشاعرة بالحب، وتتحدث عن العشاق وعذاب الحب وآلامه. فنص (من لا يحبك يافؤادي لا تفكر فيه، ص٣٣)، مثلا، يُعدّ نموذجا للقصائد الغنائية الغزلية التي تتحدث فيها شفاء صبانة بلسان العاشق الولهان، إذ قالت فيها:

يا كامل الأوصاف يا حبّوب وقف لي
دايم ونا اترضّاك خايف ينقطب قلبي
محروم شونا من حبيبي ربنا يهديه
يبخل عليّه بالزيارة ما يجي دايم
وله محل في خاطري والله به عالم
باصبر على مالقاه بي ولعاد با جافيه
خِلي عليّ زعلان دائم ما يكلمنا
ولا دريت إش السبب ريته يصارحنا
في كل شي نتبعه حتى في الغلط ساويه
ما اتحمل لإفراق شو قلبي عليّ مجذوب

يا رب ترد قلبي كما يوسف ويعقوب

خايل بنظره في عيونه لا متى لاقيه

النفس ما غلق هواها إش يرضيها

هي حاسبة أن الخضر دايم يمنيها

قلبي في العشق معلق ربنا يكفيه

ومن الواضح أن شفاء صبانة قد تأثرت كثيرا بحسين أبوبكر المحضار، إذ يتضمن عدد من قصائدها صدى لقصائده الغنائية. ففي قصيدة (عشقة الحرة عنيّة، ص٤٤)، التي تتناص مع إحدى قصائد المحضار، تضع الشاعرة نفسها في مكان العاشق المعذب، وتقرن الحديث عن آلام الحب بتصنيف النساء المحبوبات، وتحديدا البيض منهن، وتقول:

عشقة الحرة عنيّة من بلي في العشق ما نام الليالي

دوب وقته في أذية هكذا البيض بالعشاق يلقين

فصل في باب الهوية باسأل ليهم من زماني

قال ذا دفتر مِعِيّه في وصف البيض وإن البيض نوعين

شفك شككت عليّه ضاعت لأفكار وبتت دار ثاني

باك تشرح في القضيّه كيف با تعرف أن البيض نوعين

بعضهن فضة نقيّه في مقادمهن قضاهن والقبالي

في مناظرهن هييه وانته عاينهن وزرّق يوم يبدين

للنساء علقه قوية شي دواء تمّيت في حالي ومالي

يومنا نفسي دنيّه ريتهن يرحمن للعاشق ويرثين

ما عشقناك يالقسية وانته متقبّض وتوزن بالقفالي

كل من يده سخيه با تحصلهن يراعينه ويسقين

ونعثر على تناص آخر مع المحضار في قصيدة (هيضن قلبي خضيرات الوشام، ص٥٣)، التي قالت فيه:

هاجسي بالليل جانا محتشر قال في بحر المحبة نفتكر

ليه كذا أهل العشق رجعوا بالغشام

يا حبيب القلب يا زين النظر قط ما غيرك على بالي خطر

يادواء للقلب يا بيض النعام

والمحبة تستحق واحد جري ما بغت ساكت ودائم يستحي

ما يجيه الغوردائم في ابتسام

كم وكم صاليت منك يا حبيب حسّها نيران في جوفي لهيب

ريتنا باشوف ساقه والقدام

الجفا واللكاعه ما يفيد ليه كذا قلبك رجع مثل الحديد

لا هذفته تو تقاطع في الكلام

شف دموع العين ما كفت صبيب ريتنا باكون عبدك وأنت سيد

كل ما تصدره باوافق تمام

وعن عذاب الحب وأثره في جسم العاشق وذهنه تقول شفاء صبانة في إحدى قصائدها (ص٤٠):

والمحبة في البدن تِعْلِم منها حس قلبي تقسّم

وشفت جملة ناس ما تفهم ما عرفوا العاشق من الحبان

بعضهم عشقته مدفونه ساحر يرميك بعيونه

ووسط جوفه نار مرشونه هكذا في حالة الحبّان

دايم يضحك ويتبسم ما يحب كثرة الغلس والهم

يعرف الغناء وفن له جم بالهناء يا فارق الغزلان

ريتنا باحل وقع جاره با معه في ليله ونهاره

كذ معي في الوصف اخباره لي مجالسهم تشل لحزان

كم ليالي با نقضّيها با سمّره للفجر باديها

باترك الدنيا وما فيها ما نبا حاسد ولا فتان

كما تتحدث الشاعرة عن متاعب الحب والفراق في قصيدة (عسكول قال، ص٤٢)، التي تقول فيها:

لا تلومون من قلبه مولع جم

ودائم الوقت بالغزلان مفتونه

من بعد صاحبي شو القلب يتألم

وطول ليلي ونا خايل بمظنونه

وفي قصيدة (يالله رباه يا عالم بما في السر والجهرة، ص٤٥) تعبّر الشاعرة شفاء صبّانة عن موقف متحفظ تجاه أولئك العشاق الشباب الذين لا يراعون الأعراف السائدة في مجتمعهم، وتنتقدهم قائلة:

نومي زعل بيتت طول الليل ساهر ما معي غمضة

في باب العشق ليهم ما لهم معنى وقانون

نفسي تحاكينا يا صاحبي على لي يجدد العشقة

بدخل بحور العشق بسبح مثل ليهم با يسبحون

إذا دخلت العشق ما باتعرف القانون والوضعة

كلامهم دائم يقع إلا برمش العين والنون

وانته على صدقك ما تعرف الليات والعطفة

تمشي على لياتهم شفهم على الساعات يمشون

باسأل وباتخبر على من بلي في العشق والعشقة

ما بسأل الشبان ليهم للعواقب ما يفكرون

لوّل بدايتهم تقع جلسات والسمرات والصفطة

شفهم يقلون الحياء ولا من العاقل يهابون

سمرة خصوصية تقع ما بينهم اثنين في حجره

الكاس ثالثهم وهم ما هم في الدنيا يكونون

شهرين في شهرين با تعبر ولا تحصل لهم أثره

ولا الماء يشربونه ولا كذهم على العيشه يسألون

ومثل نور قدرية وخديجة الحبشي تجعل شفاء صبّانة من الحب مرادفا للامتحان والقدر الذي لا مفر منه (البلوة)؛ ففي قصيدة (الله بحبك قد بلاني، ص٢٩)، تقول:

وباطلب الله ربي يا رب والعبد عينه

هاجسي نسنس وغناء ذلا تذكر سنينه

قلبي يدور لصاحب متاه صاحبي بلقاك

وابطيت دور ونعصي ولا لحقته نجيبه

قايست بيني وبينه الا المسافة قريبة

خايف على العقل لاغرم ولا يجي القلب شي داك

العشق ياناس بلوة راثي لمن هو بليبه

وراثي إلا لمن هو يعشق ولاحد حبيبه

والدمع على الخد جاري تحسبه ذا سيل سقاك

وبانعيد المجالس في ذي الليالي القريبه

وبعد تصفى الخواطر كلين يلقاء حبيبه

وكل سالي ومطرب وانجيب ذيلاء بذلاك

ياريتنا أمشي معاهم لي دبر وبالهجيره

حسيت في وسط جوفي نيران تلهب لهيبه

يا الدان قلبي مولع ولا دريت ايش لي جاك

ماهو سوى ياظنيني كثر الجفاء ما يفيدك

والقلب حبان فيكم ولعاد دوربد يلك

تحملت كل صدمة ولا جل يازين برضاك

خامسا- الأبعاد القومية في قصائد شفاء صبانة:

تتميز قصائد شفاء صبانة عن قصائد الشاعرات الحضرميات الأخريات باحتوائها على نفس قومي عروبي، فهي تتفاعل مع القضية الفلسطينية وثورة الحجارة الأولى. ففي القصيدة الآتية تؤكد تضامن سكان حضرموت مع القضية الفلسطينية، وتقول (ص٣٤):

باطلب الله مولانا انته غافر و ستار

هايسي حركت اشجونه و ليله بيته محتار

و الحروبات لا زالت لاصيه ليل و نهار

رب عسى بالهم زوله كل يهودي و كفار

تحمي القدس ياربي من بلايا و لشرار

دوب بالعنف و المدفع ذي صهاينه و كفار

النساء والسقل تبكي دمعهم مثل لامطار

قلت بالروح بانفدي أو لهم سوق طيار

ناس ما عندهم قوة شو قنابلهم أحجار

وفي قصيدة أخرى تبتهل المولى أن يهلك الصهاينة، وتدعو العرب إلى مناصرة الشعب الفلسطيني، ويخمد نيران الحرب، وتقول (ص٥٢):

رب عسى ينطفي كل شر رب واطفي كل ناري

لي في أرض العرب للصهاينة واليهود هلاك

ايش ذنب الطفل لي هو بري خلوا الدم فيه خاوي

بالقنابل والعصي با العرب لازم تدافع قفاك

رب تحمي القدس من كل شر الأمر لله الإلهي

خاف منهم حد عصى حافظوا عالدين يغفر خطاك

وفي قصيدة ثالثة تنتقد بشدة تخاذل العرب عن دعم إخوانهم الفلسطينيين، وتدعو الله أن يزيل من الوجود الصهاينة ودولتهم إسرائيل، قائلة (ص١١١):

قال من بيّت يدير الفكر جم فاض دمع العين والقلب الحزين

لو نظرت القدس فيها الدم دم تنظرون الظلم وأنتم ساكتين

ما تأثروا ولا واحد قدم قال باتمسك برب العالمين

كل يهودي يا إلهي له عدم رب تعدمهم والأمة سالمين

رب تجيهم زلزلة ولا جذم نصفة الأطفال ليهم صامدين

قتلوا النسوان والشبان جم نتفوا السلاح منهم واقفين

والاخبار تغززنا كما شوك السلم والطفل لكذ صاح يردف بالونين

وفي قصيدة أخرى صفحة (١١٩) تتحدث عن فلسطين وثورة الحجارة بعنوان :(يا فلسطين الحبيبة) تقول فيها:

ربي ترحمهم وتشفق عينهم من كل مصيبه

لليهودي سحقه رب بواخرهم تغيبه

كل يهودي كل كافر نار توقدهم وقيده

شعبنا ينظر وساكت قال ما عندي مريده

نزعوا الإسلاح منهم بالحجر يرمي بإيده

والعرب ماحد تحرك واجمعوا من كل قبيله

(٤)

الشاعرة الشعبية فطوم بنت أحمد بن طالب العامري

(أولا) من هي فطوم عامرية؟

يؤكد عمر عبد الله العامري في كتابه (ذكرياتي مع أمي)، أن فطوم أحمد بن طالب العامري أمٌ حضرميّة متميّزة؛ فهي من أوائل بنات وادي حضرموت اللاتي التحقن بالتعليم النظامي، وبفضل ذلك قرأت القرآن وكتبا أدبية متنوعة، وكتبت بيدها رسائلها، في وقت كانت نسبة الأمية بين النساء في حضرموت شبه عامة. وقد اضطرت أن تشرف بمفردها على تربية أبنائها وبناتها بعد أن توفي زوجها سنة ١٩٨٢. وكانت فطوم كذلك شاعرة موهوبة كتبت كثيرا من القصائد الشعبية، وضمّن ابنها عمر الجزء الثاني كتابه (ذكرياتي مع أمي)، تسعا منها سنقدم قراءة لها في الجزء الثاني من هذه الدراسة.

قبل أن يتحدث الابن عمر عن نشأة أمه في الجزء الأول من (ذكرياتي مع أمي)، يقدم لنا أباها أحمد بن طالب العامري، وأمها خاتم بنت محروس العامري، ثم يكتب: "ولدت أمي في مدينة سيئون [في عام ١٩٢٩]، عاصمة الدولة الكثيرية، التي تكثر بها المساجد وزوايا العلم، وبلد الشعراء ومجالس الدان والسمر. وفيها ترعرعت بين ساحتي مسجد طه ومسجد السلطان، وهي من أعرق الساحات وأقدمها في المدينة. وكانت الأسرة الميسورة الحال تمتلك بيتين؛ واحدا في (البلاد)، والآخر في (النخيل). ففي فصل الخريف، حيث الجو حار ولم تكن هناك كهرباء ولا وسائل تكييف حديثة، تنتقل الأسرة إلى النخيل، حيث الماء والخضرة وخريف التمر، والهواء الجميل، فنسيم النخيل الرطب ليس كرياح الجبل. وهل تصدق أن الأسرة تنتقل إلى النخيل، وتنقل معها ماشيتها؟ وكذلك موقع المدرسة؛ فمدرسة النهضة تنتقل أيضا إلى موقعها الصيفي في النخيل، غربي مسجد عمر حيمد حاليا". ص٥

ثم يتناول عمر مكونات تعليم أمه، ويذكر أنها "التحقت بمدرسة النهضة العلمية الابتدائية للبنات بسيئون. وقد تأسست هذه المدرسة بمدينة سيئون عام ١٩٤٢، وكان منهجها نفس منهج مدرسة النهضة للبنين، وبدأ التعليم فيها في بيوت بالإيجار، وفي عام ١٩٦٠ انتقلت إلى مبناها الجديد المجاور لمدرسة البنين. وقد تكفل ببنائها سالم عبيد باحبيشي بمساعدة بعض الميسورين. التحقت أمي بهذه المدرسة ووصلت حتى الصف الثالث الابتدائي، حينها رأى والدي أن ابنته قد أصبحت كبيرة ولا يجوز أن يعلمها الرجال فأحضر لها معلمة تعلمها القرآن في المنزل". ". ص٧

ويذكر المؤلف أن أمه كانت تقرأ بانتظام في الكتب التي في مكتبة والده التي "يغلب عليها الطابع الديني"، ويقول: "لذلك لا غرابة أن تكون خلفيتها الدينية والثقافية رصينة ومتعددة الجوانب". ص١١ ويذكر كذلك أن والدته كانت، في شبابها، تنظم بعد صلاة العشاء مسابقة في الأمثال الحضرمية، ويضيف "لذلك لا تستغرب أن يجمع خالي حسن أحمد بن طالب العامري

في كتابه المطبوع (ألفين مثل من حضرموت)، ثم يخرجه مرةً أخرى في كتاب طبع بعنوان: أربعة آلاف مثل من حضرموت". ص١٤

ويعود سبب زواج عبد الله العامري من فطوم بن طالب العامري إلى مجيء عبد الله سنة ١٩٤٣ من تاريه بصحية والدته عافية لإتمام إجراءات الحج ونزولهما في بيت بن طالب، وشاهدت عافية فطوم ابنة أحمد بن طالب، "الفتاة التي تستطيع القراءة والكتابة، حسنة الخلق، فأعجبت بها وأشارت على ولدها: إذا عدنا من الحج أخطب بنت أحمد بن طالب، وفعلا حصل هذا". ص٢٧

وبعد الاقتران بفطوم بنت أحمد بن طالب سافر عبد الله العامري مرتين أخيرتين إلى كينيا، وفي المرة الأخيرة باع ممتلكاته هناك، إذ أنه قرر الاستقرار في حضرموت. وبعد الدخول في علاقة عائلية مع بن طالب، قرر الدخول معه في شراكة تجارية. ص٢٧ وبما أنه "وجد أن الحياة بتاربة صعبة - فهي بلدة صغيرة والتجارة فيها غير مربحة والتنقل من تاربة إلى سيئون يوميا صعبا- قرر الانتقال إلى سيئون". ويضيف المؤلف "وفعلا استأجر أبي بيتا في ساحة السلطان، وهي الساحة التي ولدت وترعرعت فيها

والدتي، وفيها يسكن والدها وإخوانها... ورُزق والدي من أمي خمسة؛ ثلاثة ذكور وهم: أنا أكبرهم، ثم إخوتي: خالد ومحمد، وبنتان: آسيا ووفاء، وخمسة آخرون ماتوا وهم صغار السن". ص٢٨

ويذكر عمر أن أمه "كانت في شبابها خياطة ماهرة تخيط لكثير من الناس، فكانت تفصّل الملابس ليلا وتخيطها نهارا وذلك كيلا تزعج الجيران بصوت مكينتها"، ص٤١

ويحدثنا عمر عن أخلاق الشاعرة فطوم بن طالب العامري مؤكدا أنها "كانت حريصة على أن تتصدق بما تستطيع، قلّ أو كثر، وتشجعنا على ذلك، وتستشهد دائما بالمرأة التي دخلت الجنة بشق تمرة، وأن الصدقة تطفئ غضب الرب، إذا مرض شخص في البيت تتصدق، وإذا علمت بمعسر تسعى له قدر إمكانها. لمَ لا وهي ابنة أحمد بن طالب رحمه الله. وجدتها نور رحمها الله قد تصدقت بقلادتها لبناء جابيتين في مسجد طه بن عمر ولم تشعر أحدا بذلك حتى ماتت وبعد موتها عُلِم ذلك. رحمهم الله جميعا وتقبل منهم ذلك ."ص٣١

وفي نهاية نص (ذكرياتي مع أمي) يتحدث المؤلف عن إصابتها بداء السكري قبل سبع وعشرين سنة من وفاتها، وتحدث عن حزمها في التعامل معه قبل أن يسرد إصابتها بجلطة ووفاتها يوم الثلاثاء ١٤ يونيو ٢٠١١، ويذكر أنه هو الذي أمّ الناس في الصلاة عليها بمسجد طه. ص٦٠

(ثانيا) فطوم بن طالب العامري والغناء الحزين:

بعكس الشاعرات الأخريات اللاتي قمنا بدراستهن في هذا الكتاب، لم تعط فطوم بن طالب اهتماما يذكر بالشأن العام، كما أنها لم تهتم بالطرب والسلا؛ إذ هيمن الحزن والدعوة إلى التحلي بالصبر عند الشدائد على القصائد التسع التي ضمّنها ابنها عمر كتابه (ذكرياتي مع أمي). ففي هذه القصائد تعبّر الشاعرة عن الحزن الشديد الذي وقعت فيه بعد وفاة زوجها في حادثة سقوط طائرة اليمداء (الداش) في ساحل أبين سنة ١٩٨٢. ففي القصيدة الأولى (لا تعطي السر من لا يكتّه)، تبيّن فطوم أن المصائب قد كدّرت حياتها وغيّرت حالها، وتعبّر عن ذلك قائلة:

قلبي تكدّر هو لي كان سالي

والله عالم باللي هو ببالي

والخير كله والشر منه

لا تعطي السر من لا يكتّه. ص٦٧

وفي القصيد الثالثة (يا اللي تقولون المحبة بلا مقياس)، تعترف أن شعرها، الذي ليس له أي علاقة بالطرب والسلا، يعبّر عن همومها وحزنها، وتدعو الله أن يكون عوناً لها:

غنّيت من ما بي وجددته بألحاني

غنايّ ما هو سلا من كثرة أحزاني

إذا بليت العبد كن في العون قوّ الساس

يا اللي تقولون المحبة لها مقياس

يا رب عطنا الصبر لي به تثقل أوزاني

عندك وأما الناس هم عندي خبر ثاني

من قال شي خله يقول انته بعبدك حاس

يا اللي تقولون المحبة لها مقياس. ص٨٣

وتكرر ذلك الاعتراف في القصيدة السادسة (راعي زمانك بشيش ابشيش)، التي تقول فيها:

القلب يسجع بكل ما به

يارب وفر له احسابه

وكل من ظلمنا قله ليش

راعي زمانك بشيش ابشيش. ص١١١

كما تبرز دعوة الشاعرة للمتلقي إلى تجنّب الربط بين قصائدها والسلا، في القصيدة الرابعة (الصبر من قوة الإيمان)، التي تقول فيها:

من شافنا غنّي يقول من كثرة سلوانه

يا عالم الحال فيوز القلب خربانه

وانته المصلّح لكل من وقع خربان

الصبر من قوة الإيمان

سلوتي لله بحق هذه السورة

ياسين قلب القرآن بها كون منظورة

دنيا وأخرى بها با يخرس الشيطان

الصبر من قوة الإيمان. ص٩٤

ومن المؤكد أن المشاكل العائلية قد تركت أثرا كبيرا في حياة فطوم بن طالب، وكدّرا عليها حياتها، لاسيما بعد أن أصبحت هي المسئولة عن تربية أولادها وبناتها. ففي القصيدة الثانية (كذها مقالة الصبر من قوة الإيمان)، توصي الشاعرة ابنها الكبر عمر وأخوانه بالتزام السلوك القويم، قائلة:

يا عمر انته وأخوانك تقع قدوة

لي ما يجي بالسهل با تجيبه القوة

سرح على حبل الوكل وفيظ الأعيان

كذها مقالة الصبر من قوة الإيمان. ص٧٧

مرافعة الشاعرة فطوم ضد القضاة:

تضمن فطوم بن طالب قصائدها مرافعة طويلة ضد القضاة الذي، في رأيها، لا يستندون في أحكامهم إلا على الأوهام والأكاذيب والرغبة في الشهرة و(البخشيش)، وتقول:

يمشون عالكذب لأجل السيط والشهره

كل يوم لاجيتهم قالوا انتظر بكره

ويومهم شهر أهل الظلم والبهتان

كذها مقالة الصبر من قوة الإنسان ص٧٤

وفي القصيدة الرابعة تكرر اتهامها للقضاة الذين يعتمدون الأكاذيب والأوهام، وتقول:

يمشوا عالأوهام والكذب والصورة

وهي قربعة في تنك لي يورهم يورة

سكت على ما بك ولا تقول عايب السلطان

الصبر من قوة الإيمان

ياللي مشيتوا عأقوال ملفوقة

يا اهل الحيَل والزور ووجوه معروفة

نبّوا على من كذب: العاقبة نيران

الصبر من قوة الإيمان. ص٩٥

وتكرس فطوم بن طالب الجزء الأكبر من قصيدتها السادسة (راعي زمانك بشيش ابشيش) لتوجيه نقد لاذع للقضاة، وتتهمهم بعدم التردد في ابتزاز زبائنهم ومماطلتهم واستلام الرشوة منهم، وتقول:

لا يخاف من الله ولا خلقه

بعد أربعين ما أكتمل عقله

لو تسأله قالك مافيش

راعي زمانك بشيش ابشيش

وتروح وتصبر على مهله

وبعد مدة تجي عنده

ولو جيت طقّى وسحب الفيش

راعي زمانك بشيش ابشيش

يقولون تعبان بغا رقده

وأنا قول هذا بغا هدّه

با تجي لهم قوم ما تدريش

راعي زمانك بشيش ابشيش

ربي لا تبلغه في قصده

ونيته ربنا تسده

والأقرب أنه بغا بخشيش

راعي زمانك بشيش ابشيش

ونحنا نخاف الله بس وحده

ولا بغينا نبخشش له

يا نفس لي فيش ما يخليش

راعي زمانک بشيش ابشيش

قاضي لنا مفتهم قصده

ولا بدا هو ظلم عبده

حاقد لنا ما درينا ليش

راعي زمانک بشيش ابشيش

با يشوف کما ما وقع لمثله

والله ما تأخذه غفله

باتشوف بعينك عليك بشيش

راعي زمانك بشيش ابشيش

يمشي بلا سكان ذهن قله

ويشوف شغل الذي قبله

آل بارجاء وغيرهم وباحريش

راعي زمانك بشيش ابشيش. ص١٠٣-١٠٥

فطوم بن طالب العامري والحث على الصبر:

تبيّن لنا قصائد فطوم بن طالب العامري أن الصبر بات أحد أهم الأسلحة التي استخدمتها الشاعرة لمقاومة وطأة الشدائد التي أثقلت عليها كاهلها وكدرت نفسيتها. لهذا وضعته في (القفلة) التي تتكون منها المقاطع الرباعية التي تتكون منها ثلاث من قصائدها: (كذها مقالة الصبر من قوة الإيمان)، و(الصبر من قوة

الإيمان). ففي القصيدة الثالثة (يا اللي تقولون المحبة لها مقياس)، تؤكد الشاعرة عزمها على الصبر، قائلة:

بصبر على ما بي وبالفضل ياسعدي

ولا بشكي الضيم إلى إنسان ما يغني

ولا يفتح الإقليد وشي ناقص من الأضراس

يا اللي تقولون الحبة لها مقياس. ص٨٨

وفي القصيدة نفسها تؤكد فطوم أن جزاء الصبر يكون دائما القدرة على تجاوز المحن والشدائد،

كل من صبر على القار لازم يشرب الحالي

من انظلم ما عذر يتعوض بشي ثاني

يكفيك شر الخلق كل واحد حمل مرواس

يا اللي تقولون الحبة لها مقياس.

وفي القصيدة الخامسة (الصبر من قوة الإيمان) تدعو الشاعرة الله أن يثبتها على الصبر قائلة:

يارب عونك تشوف اقلوب تعبانه

كم قاسوا الصبر بأشكاله وألوانه

والظن في الله جميل مانا بغيره ظان

الصبر من قوة الإيمان

يا كاتم الغيض لي مذكور في القرآن

شف من كتم غيضه الله يثقل أوزانه

بالصبر با تملك ولك با تثقل الأوزان

الصبر من قوة الإيمان. ص٩٧

وتدعو فطوم أحد ابنائها بالصبر والثبات وعدم العجلة، قائلة:

عليك بالصبر ولك الله ما جابه

شرقت نواره علينا وافتح ابوابه

نحن قلال الصبر ارحم صبرنا في الآن

الصبر من قوة الإيمان

اصبر لحلمه وبعد عز وشهاده

لا قد كتب البخص با يقرنه بسعاده

يلطف بك الله مد الوقت والأزمان

الصبر من قوة الإيمان

اصبر على ما جاك بحق آله وأصحابه

إذا قفلوا لأبواب ربك ما قفّل أبوابه

يشوف صبر العبد كيف سوّى مع لأحزان

الصبر من قوة الإيمان

عسى الصبر لي ما يضر يارب ارحم حاله

وانظره يارب بنظره واسمع أقواله

بدعيك ربي استجب وادركه بنصران

الصبر من قوة الإيمان. ص٩٠-٩١

ومن اللافت أن الحث على الصبر قد ارتبط في قصائد فطوم بن طالب بنوع من التحفظ، بل والتشاؤم تجاه الآخرين، لاسيما تجاه أولئك الناس الذين ينشرون الأكاذيب والإشاعات والأوهام التي يعتمدها القضاة ليحكموا على الناس، وتقول:

من وجهة الناس كم قلبي قاسي

ويقول في الدنيا ساسي وراسي

نعوذ بالله يارب منه

لا تعطي السر من لا يكنه

مطية الكذب تزحف.. من كذب قل له

عدل كلامك قبل تتحاسب على الزلة

إن جاملوك الناس معنا ربنا سبحان

لا تعطي السر من لا يكنه

الله يخونك يا خاين بما قلته

من أمنك لا تخونه وانته قد خنته

يكسب لنفسه كل من عاب ولا زان

لا تعطي السر من لا يكنه. ص٧١

وفي قصيدتها الرابعة تكرر الشاعرة نقدها للكذابين الذين يثيرون الفتن بين الأهل والناس بشكل عام، وتقول:

مالكذب الا عمل ما منه لفوفة

عَمَل ما يلقي سبول.. كما الصورة

ما شي فايده منه يا وحلة الوحلان

الصبر من قوة الإيمان

رب اكفنا شر من يمشي على جهله

ومن وقع في هم له الله يوم ماحد له

وانته تقبّض به شف ذا برد ما شي كنان

والصبر من قوة الإيمان

وكل بردان يا رب سهّل أكنانه
وابعده من ناس لي في الكذب فتانه
مطية الكذب تزحف ولو وقع فنان
الصبر من قوة الإيمان

فينه الكذاب فال الله ولا فاله
دعوه اليوم ذا بالكذب أقواله
لي ما يخاف الله بعيد من الصدق والإيمان
الصبر من قوة الإيمان

بعض العرب يسجع باللي يبغاه في راسه
وهو كل شي تقوله يبغى له دراسه
نسنس علينا يا نسيم واكفنا الأعيان
الصبر من قوة الإيمان

فتنة أشد من قتل من يفتن على اخوانه
ذكرها مولاي في أول نصف قرآنه
نزلوا بهم قوية ساعدهم الشيطان
الصبر من قوة الإيمان

(٥)

قراءة في كتاب الشاعرة الداعية علوية عبودة

(المرآة الناظرة في السنة الداثرة)

تحتوي المكتبة الحضرمية على آلاف الكتب المخطوطة التي لم تحظ حتى اليوم بالاهتمام اللازم من قبل الدارسين والباحثين والناشرين على الرغم من أهميتها الكبيرة. ومن بين تلك الكتب المخطوطة التي لم يلتفت إليها أحد حسب علمي كتاب الداعية الشاعرة الشعبية علوية بنت عبيد الله بن محسن السقاف التي كانت النساء في سيئون يطلقن عليها (علوية عبودة)، أخت المؤرخ الأديب عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف.

وقد ذكرت الرحالة البريطانية فريا ستارك أنها زارت علوية عبودة، أولا في مراسلاتها، ثم في كتابها الشهير (البوابات الجنوبية للجزيرة العربية). ففي الرسالة التي حررتها فريا

ستارك إلى أختها فلورا يوم الجمعة ١٤ فبراير ١٩٣٥، كتبت: "اصطحبتني خادمة إلى منزل كبير أرادت صاحبته المتعلمة أن تقابلني. وذكرني المنزل بمسرحية موليير (المتعلمات المتحذلقات). وقادنا سلم أبيض إلى غرفة، ذات أعمدة، ومطلية بالجير الأبيض (النورة)، ومفروشة بالسجّاد. كان هناك ما يقارب العشرين امرأة جلسن متقرفصات في شكل مربع، وفي طرفه جلست تلك المرأة الممتلئة، وذات العينين اللامعتين والضفيرتين المتدليتين على جانبي وجهها. وحالما شاهدتني أدخل شرعت في قراءة حديث نبوي من (صحيح البخاري). ولم أستطع مقاطعتها إذ أن القراءة كانت على وتيرة واحدة وبصوت رنان مشفوع بإشارات من الأصبع المخضب بالحنا. وبين الحين والآخر كانت السيدة تقطع الحديث بآية من القرآن أو باقتباس آخر. وعلمتُ أن هناك نساءً متعلمات أخريات في سيئون، لكنهن كنّ متعصبات بعكس هذه السيدة اللطيفة التي أعطيتها هدية لتذكرني. وكانت أرملة وشابة وذات أخلاق فاضلة، وتحظى باهتمام من حولها، ولديها

أطفال، وتمتلك بيتا، وتعدّ من أكثر الناس سعادة في بلادها، وتجلب السعادة لمن حولها، بل حتى لمن هم من خارج حضرموت".

وكنتُ، في سنة ١٩٩٧، قد ترجمتُ بعض فصول من كتاب فريا ستارك (البوابات الجنوبية لشبه الجزيرة العربية)، ومنها الفصل المكرس لسيئون، الذي قدمت فيه فريا ستارك -دون أن تذكر اسم- إحدى عالمات وشاعرات سيئون، كانت قد دعتها لحضور أحد مجالسها (مدرس)، وذكرت أنها كانت أرملة وشابة لديها أطفال، وتعيش في بيتها الذي تعود ملكيته لها، وأنها شاعرة شعبية مرموقة شاركت في بعض المساجلات، وفازت بفضل ذلك على عدة شاي جائزة في إحدى المساجلات الشعرية.

وكذلك الرحالة دورين انجرامز، ذكرت في كتابها (أيامي في جنوبي الجزيرة العربية) أنها التقت بـ(علوية عبودة) أثناء زيارتها الثانية لحضرموت في إحدى ليالي شهر رمضان، في خريف سنة ١٩٣٦، في بيت أبي بكر الكاف (بن داعر)، وكتبت: "ومن مظاهر شهر رمضان أن يتحول الليل إلى نهار، حيث تمتلئ ليالي هذا الشهر بالولائم والزيارات التي تستمر حتى الساعات الأولى من الصباح.

وقد أتى لزيارة فاطمة –بين من أتى لزيارتها في إحدى الليالي- أختان رائعتا الشكل، سرعان ما تبينت إن إحداهما هي الشريفة علوية، وهي الأرملة العالمة التي جاء ذكرها في كتاب فريا ستارك [البوابات الجنوبية للجزيرة العربية] .

سبب تأليف علوية بن عبيد الله السقاف لكتاب (المرآة الناظرة في السنة الداثرة):

في مقدمة (المرآة الناظرة في السنة الداثرة) كتبت علوية عبودة "وبعدُ فتقول الفقيرة إلى الله، ذات الذنوب الكثيرة، فأنه أطال فكري في الناس، فرأيتُ أمورهم تحيّر بالإحساس، وتضيق منها الأنفاس، وذلك باهتدام الدين من الأساس، ولا سببه إلا ترك النيّة، وإضاعتها بالكلية، فأنشأتُ هذا الكتاب، وسمّيته: المرآة الناظرة في السنة الداثرة. وجمعته من كتب كثيرة على قدر معرفتي، وانحطاط منزلتي، وأرجو به النفع والانتفاع، وظنوا باهتدامه أنه من النساء ما شاء الله أن يكون منهن".

وترى المؤلفة أن سبب جهل المرأة بأمور دينها هو الرجل، فقد كتبت: "ويقلن إذا أصابتهن مصيبة: إنا لله وأنا إليكم الراجعون، ويقلن بسم الله والحمد لله والخير والشر من مشيئة الله. وهذا غلط. وأشياء أخرى لا تحصى. ولا سببه إلا من الرجال، فلا يرون للزوجات عليهم حق، ولا بناتهم حق، ولا حد يخلق مُتعَلّم إلا بالتعليم؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كل مولود يولد على الفطرة، وكذلك النساء..". وتضيف: "والآن فقد أسقطوا حقوق النساء بالكلية؛ وصرن يتملقن للرجال لمّا أسقطوا حقوق النساء هانت عليه". ص ٨

وتنتقد علوية إهمال الرجل للمرأة خلال فترة الغربة التي تميّز بها الرجال الحضارم، فقد كتبت: "وقوله ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم. فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة، وما ذلك إلا من الحقوق الكثيرة التي لهن. قال في شرح تفسير الخازن: لا رخصة للرجل أن يطيل الغربة في السفر ويذرها لا هي مطلقة ولا هي معلقة". ص٤

وترى علوية عبودة أن في ترك المرأة جاهلة، لا سيما بأمور الدين، إهانة لها، وكتبت عن تجهيل المرأة: "وأنما غرضنا البيان، ولهذا أنهم أهانوا النساء من جهة الدين، وذلك من قلة الرغبة فيهن؛ فترى المرأة ما تعف الكلام ولا الحلا من الحرام ولا الواجب من السنة". ص٥

وتنتقد علوية بعض النساء المتفقهات، وتقول: "وكذلك بعضهن يتعلمن القرآن على نية فاسدة نعوذ بالله منها، وعلامة نيتهن أنها إذا قرأت القرآن خرجن منه قبل أن تفهم معناه، واشتغلت بقراءة المولد والقصائد لأجل تقرأ بحضور الناس، فتكون بهذه النية ملعونة، حتى معلمها تصيبه اللعنة، فلو كانت لله لكانت تقرا القرآن بفهم ومعنى وبعض التفسير والحديث والفقه والتصوف بقدر حاجتها إليه واستطاعتها". ص٦

أهمية النية فيما كتبته علوية:

في مختلف أجزاء الكتاب تؤكد علوية عبودة على أهمية النية لإنجاز مختلف العبادات والأعمال، وتقول إن أركان العمل الصالح: العلم والنية والصبر والإخلاص ص ٣٦ وتكتب: "اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم: العمل بالنيات. فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله: نويت أن أدرس لله، أو أتجر لله، أو آكل لله، ويظن ذلك نية. وهيهات ما بين هذا وهذا، فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر وانتقال من خاطر إلى خاطر. والنية بمعزل عن جميع ذلك، بل أنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها أما عاجلا أو آجلا. والميل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة، بل ذلك كقول الشجعان: نويت أن أجوع وأشتهي الطعام، أو يقول نويت أن أحب فلانا وأعشقه فذلك محال. ولهذا امتنع جماعة من أهل السلف من جملة من الطاعات إذا لم تحضرهم النية، وكانوا يقولون: لم تحضرنا نية". ص٣٧

وتضيف "إذا جاء ضيف فأكرمه. ويُسن القيام لدخوله، والبشاشة، وأن تشير أن يجلس في مكانك وتقوم بخدمته وتبدأ بالأكل قبله.. وأن تغسل قبل الأكل وبعد، وتنوي عند الغسلتين، فإن لم تنو لم تحصل لك الفضيلة، حتى عند أكل الدبا، لأن رسول الله صلى لله عليه وسلم يحبه،، وكذلك العسل واللحم تستجب النية عندهما، والخل وعند الطيب، لأنه قال حبب الله إلي من دنياكم ثلاث: النساء والطيب جعلت قرة عيني في الصلاة، والنية ولو بقلبك دون اللسان، فلو أن تذكر الحديث فيحبه قلبك ويخف عليك العمل بسببه حصلت النية. وقال الحبيب أحمد بن حسن العطاس رضي الله عنه: لابد للإنسان من أربع خصال في الدنيا: صبر على ما يحبه وصبر على ما لا يحبه جبر للبر والفاجر، وعقل يميز به الأشياء، ونية صالحة في هذا كله ليبلغ مقصوده. وقال أيضا رضي الله عنه: إذا خرجت إلى الآخرة لا يخرج معك إلا عملك الصالح ونيتك الصالحة والباقي يخلف، فوضعه من ذلحين". ص٤٤

وعن أهمية النية في أعمال التجارة قالت: "إذا أردت تجارة فأنو بها طلب الرزق الحلال. قال: إن من بات يطلب الحلال بات مغفورا له، وينوي التعفف عن المسألة والنفقة على من تلزمه نفقته والمعونة على طاعة الله والكرم والتصدق والتجمل لله والميل عن الحرام لأن الفقر قريب إلى الكفر... فإذا طلب الرزق بغير نية خسر خسرانا بينا بتركه النية، لأن النية رأس الدين فإن نوى التنعم والتفاخر أو التكبر أو العجب أو البغي فقد انعكس عليه الأمر وصار إلى النار أقرب ويخاف عليه سوء الخاتمة إن مات قبل التوبة وباب التوبة مفتوح. والنية بها صلاح الشيء وفساده". ص٤٨

توظيف الحكايات والمنامات في كتاب (المرآة الناظرة في السنة الداثرة):

يهدف كتاب (المرآة الناظرة في السنة الداثرة)، في الأساس، إلى تقديم عدد كبير من المسائل الفقهية للقارئ. ولضمان استيعاب القارئ لتلك المسائل، تتكئ الداعية علوية عبودة، في الغالب،

على سرد أحداث من حياة الرسول أو الصحابة، أو وقائع تاريخية، أو منامات أو حكايات مختلفة. ومن اللافت حقاً أن علوية عبودة لم تتردد في تكريس نحو عشرين صفحة من كتابها لتسرد فيه حكايات ليس بغرض الوعظ، بل لتسلية القارئ، فهي تكرس الصفحات من ١٣٢ إلى ١٥٠ لباب عنونته بـ(الحكايات)، وضمنته سردا لعدد كبير من حكايات الفصحاء ونوادر البلغاء، بدأتها بحكاية عن عبد الملك بن مروان، استهلتها على النحو الآتي: "حكي أن عبد الملك بن مروان جلس يوما وعنده خاصته، فقال: أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله ما تمناه، فقام إليه سويد بن غفلة وقال أنا لها يا أمير المؤمنين.

ولضمان تسلية القراء تلجأ علوية عبودة إلى سرد بعض الحكايات التي ألصقت بأسماء بعض (المزّاحين) العرب، مثل الأشعث ونعيمان بن عمرو الأنصاري، والتي تضمنتها كتب التراث العربي. فهي مثلا تورد عددا من نوادر أشعث المضحكة، وقد افتتحتها قائلة: "ذِكر بعض مناقب أشعب المضحكة ليتسلى بها القارئ. قال أشعب: لقيت رجالا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا لي لو حفظت

أحاديث تتحدث بها، فقال أنا أعلم الناس بالحديث. فقالوا له: فحدثنا. قال حدثني عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خلتان لا تجتمعان في مؤمن إلا دخل الجنة، ثم سكت. فقيل له: هات الخلتين. قال نسي عكرمة أحدهما ونسيت الأخرى أنا. وقال محمد بن قبيلة: غذى أشعث جدياً بلبن أمه وغيرها حتى بلغ غاية. ثم قال لزوجته أم ابنه ورد أني أحب أن ترضعيه بلبنك ففعلت. ثم جاء به إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد، فقال: تالله أنه لابني رضع بلبن زوجتي وقد صفوتك به ولم أر أحدا يستاهله سواك، فنظر إسماعيل إليه وأمر به فذبح وسُمّط، فأقبل عليه أشعث وقال: المكافأة؟ فقال إسماعيل: ما عندي والله اليوم شيء، ونحن من تعرف وذلك غير فائت لك. فلما يئس أشعث منه قام من عنده ودخل على أبيه جعفر، ثم اندفع فشهق حتى التقت أضلاعه، ثم قال: أخلني. قال [جعفر] ما معنا أحد يسمع ولا عليك عين. قال [أشعث]: وثب ابنك إسماعيل على ابني فذبحه، وأنا أنظر إليه. فارتاع جعفر وصاح: ويلك وتريد ماذا؟ قال: أما ما أريد فوالله مالي في إسماعيل حيلة ولا يسمع هذا سامع أبدا بعدك، فجزاه خير

وأدخله منزله وأخرج إليه مئتي دينار وقال: خذ هذه ولك عندنا ما تحب. قال وخرج جعفر إلى إسماعيل وهو لا يبصر. فإذا به مسترسل في مجلسه. فلما رأى وجه أبيه أنكره، وقام إليه، فقال: يا إسماعيل فعلتها بأشعب وقتلت ولده؟ قال: فاستضحك وأخبر أباه بما كان منه، فكان جعفر يقول لأشعب: رعتني راعك الله ."ص١٣٤

بعد ذلك تورد المؤلفة بعض نوادر المزّاح النعيمان بن عمرو الأنصاري الذي عاصر الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي تناقلت كتب الصحابة كثيرا من طرفه. وقد أوردت علوية عبودة بعض نوادره دون أن تربطها بسياق وعظي محدد، أي أن هدفها كان تسلية القارئ فقط. وقد بدأتها على النحو الآتي: "من مضحكاته أنه مرّ يوما بمخرمة بن نوفل الزهري وهو ضرير. فقال له: قدني حتى أبول. فأخذ بيده، فلما كان في مؤخرة المسجد قال له أجلس. فجلس مخرمة ليبول. فصاح الناس به: يا أبا المسور أنت في المسجد. فقال من قادني؟ فقيل له: نعيمان. فقال: للّه عليّ أن أضربه بعصا إن وجدته. فبلغ ذلك نعيمان. فأخذ بيده وجاءه إلى عثمان بن عفان رضي الله هنه وهو يصلي، وقال له هذا نعيمان،

فعلاه مخرمة بعصاه، فصاح به الناس: ضربت أمير المؤمنين، فقال: من قادني؟ قالوا له: نعيمان. فقال: لا جرم. لا عرضت له بسوء أبدا". ص١٣٥

بالمقابل، حرصت علوية عبودة على توظيف سرد بعض المنامات لشرح ما جاء في بعض آيات القرآن أو أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم. فهي، مثلا تورد أولا حديث النبي الذي ينص على أن الأطفال الذين يتوفون صغارا يكفلهم إبراهيم وسارة ويظلون "في جبل في الجنة حتى يردهم إلى آبائهم يوم القيامة". ثمّ تشرع في سرد منامات تبيّن ما جاء في الحديث، وتكتب: "ورأى بعضهم في المنام كان كلب أسود يطرده ورجل شيبه يطرد الكلب، ولا قدر حتى وصل إلى وادي فرأى صبيان كثير، ذكور وإناث، فتخرج من بينهم صبية وتأخذ بيدي وتطرد الكلب عني، وقال: أنت أبي وهذا الكلب عملك السيء قويته، والرجل الشيبه عملك الصالح أضعفته، معاد قدر في عملك الخبيث، فقلت لها في أي مكان نحن؟ قالت: نحن بهذا الوادي عند إبراهيم في كفالته. كل من مات طفل جاء إلى هذا الوادي. فانتبهت من منامي وتبت". ص١٧٦

ثم تسرد مناما آخر قائلة: "وكان رجل آخر لم يتزوج أبدا فرأى في المنام كأنّ القيامة قد قامت وهو عطشان. فمرّ على صبيان كثير وعندهم نهر غير آس، وآنية يشربون فيها، فقلت: أسقوني شربة ماء، فقالوا ما أنت أبو أحد منا. ثم مرّ على طائفة أخرى من الصبيان فقالوا له كما الأولى، ومرّ على الثالثة، فقالوا له مثل الأولى، فأشرفت على الهلاك، فلقيت رجلا فقال: تزوج. فانتبهت، وتزوجت ورزقني الله ولدا ومات والحمد لله". ص١٧٧ .

وبهدف توضيح ما يردده الناس من أن الأطفال الذين يموتون صغارا يشفعون لأهلهم تورد علوية عبودة بأسلوبها حديثا نبويا مع شرحه: "عن النبي صلى الله عليه وسلم أن أطفال المؤمنين يوم القيامة يسقون آباءهم وأمهاتهم من ماء الكوثر (وهو حوض النبي صلى الله عليه وسلم) ويقعدون عند باب الجنة إلى أن يدخل آباؤهم الجنة، وإن كان أهلهم في النار يبكون ولا يدخلون الجنة. يغلبون [يرفضون]. ويقولون ما با ندخل إلا إذا جاء أهلنا، فيرحمهم الله ويخرّج أهلهم من النار إن كانوا من المسلمين يدخلهم الجنة،

فيسكتون من البكاء ويدخلون هم وأهلهم وهم يضحكون". ص١٧٩

الوفيات في كتاب (المرآة الناظرة في السنة الداثرة):

دأب بعض مؤلفي الحوليات والمؤرخين، أو حتى الأشخاص الذين يدونون يومياتهم أو مذكراتهم بانتظام، على توثيق تواريخ ميلاد أطفال الناس الذين حولهم. وهناك من أهتم بتوثق تواريخ الوفاة، مثل الداعية علوية بنت عبيد الله السقاف، التي خصصت خمس صفحات من كتابها (المرآة الناظرة في السنة الداثرة) لتوثيق ثلاثين من الوفيات الحضرمية (من صفحة ١٥١ إلى صفحة ١٥٥). وفي مستهل الصفحة الأولى كتبت: "وهذا تاريخ من توفاه الله وكان في حفظي".

وأكدت أن النية الصالحة وتقديم خدمة للمسلمين وطلب الأجر من الله هي الأسباب التي دفعتها لتسجيل الوفيات، فقد كتبت: "وهذا كتبته على نيّة صالحة، لأنه ورد في الأثر أن من كتب

تاريخ ولي لله أحياه الله تعالى وكان معه يوم القيامة، ومن طالع اسمه في التاريخ حبا له فكأنما زاره، ومن زار وليا خفت ذنوبه ما لم يؤذه أو يؤذي مسلما في طريقه، ومن أرّخ واقعة يحتاج المسلمون إليها يوما أو يجد بها مسلم راحة، كمعرفة سنة أو غيرها، فكأنما أزال حجرا من طريق المسلمين، ومن أزال حجرا من طريقهم احتسابا غُفِر له، وكما من ولد لأحد مولود مع موت أحد من المؤرخين، ولم يكن في حفظه من ولده وهو وقت بلوغه، فنظر التاريخ، فلابد أن يفرح بذلك أو غير ذلك. وبالله التوفيق". ص١٥٤

ومن الواضح أن المؤلفة قد ركزت على وفيات الوجهاء ونسائهم. فهي تذكر أن "ختم [القرآن على روح] السلطان منصور بن غالب وقع في ٢٥ ذي الحجة ١٣٤٧، وتوفي الحبيب شيخ الحبشي [أخ للحبيب علي الحبشي ومؤلف رحلة الشاهد المقبول] في ٢٥ جماد الأول ١٣٤٨". ص١٥١ وتوثق وفاة علوي بن بصري على النحو الآتي: "وتوفي السيد الجليل والحبيب الصادق علوي بن بصري بن محسن السقاف في ١٩ رمضان ١٩٤٩، رحمه الله آمين. وتوفي الحبيب علي بن

صالح الحامد في ١٥ شوال يوم الربوع ١٣٤٩، بينه وبين السيد علوي المرحوم شهر قاصر خمس أيام.. وتوفيت الحبابة خديجة بنت الحبيب علي بن محمد الحبشي يوم الربوع ٦ ربيع ثاني ١٣٤٣، وقت المحلة".

وتعلمنا تلك الوفيات حول طريقة تسمية الإناث بين فئة العلويين قبل قرن ونصف، وهي طريقة تختلف عن طريقة اختيارهم للأسماء اليوم؛ فمن اللافت أن اسم (سعدية) كان حينذاك منتشرا بينهن، أما اليوم، فحسب علمي، لا يطلق العلويون على بناتهم اسم سعدية. وقد بدأت صفحات كتاب (المرآة الناظرة في السنة الداثرة) حول الوفيات على النحو الآتي: "توفيت الحبابة سعدية بنت الحبيب حسن بنت صالح البحر في يوم الثلوث ١٤ رمضان ١٣٤٧، وفي هذا الشهر توفيت الحبابة شفاء بنت الحبيب حسن بن جعفر.. وتوفيت الحبابة سعدية بنت عبد الله الهدار بن الشيخ أبوبكر في ذلك التاريخ، ساكنة وادي تاربة". ص١٥١ ومن المعلوم أن شقيقة علوية عبودة التي ذكرتها دورين انجرامز في كتابها هو سعدية.

وفي بعض الأحيان لا تذكر المؤلفة اسم المتوفية وتكتفي بنسبها إلى أبيها. فهي تكتب "وبهذا التاريخ أيضا توفيت بنت الحبيب عبد الله بن محسن بن علوي السقاف، وبعدها بكمة أيام توفيت بنت الحبيب محمد الجفري مرة سقاف بن طه الحييلي". ص١٥

ونلاحظ أن معظم الوفيات التي وثقتها علوية عبودة في كتابها هن لنساء، وفي الغالب من العلويين وبشكل خاص من العلويات اللاتي تعرفهن، من مدينة سيئون وتريم وما حولها. من غير العلويين لم نرصد بين الوفيات التي وثقتها علوية عبودة إلا اسمين؛ أحدهما اسم عالية بن عمر باخماره، وذلك في الفقرة الآتية "في ١٦ ربيع أول ١٣٥٤توفيت سيدة بنت محضار الحبشي يوم الحد وأبوها بعد يوم الثلوث، رحمهم الله آمين. وتوفيت عالية بنت عمر باخماره زوجة عبد الرب، وهي نعشوها مرة مع السيد علوي المحضار إلى التربة. وفي ذلك اليوم دخلت زوجة السيد علوي العدة [الشهور الأربعة التي يتوجب على الأرملة بقاؤها في البيت بعد وفاة

زوجها]، وبنت السيد عبد الرحمن بن محضار خرجت من العدة بالولادة، وهن في بيت واحد؛ وحدة دخلت ووحدة خرجت". ص١٥٣

والاسم الآخر -غير العلوي- هو اسم عمر حسان الذي أوردته المؤلفة على النحو الآتي: "توفي الشيخ عمر عبيد حسان في ٢٥ رمضان سنة ١٣٤٩، ليلة الجمعة وليلة ختم عبد الملك". ص١٥٢

شعر علوية عبودة:

ذكرت الرحالة البريطانية فريا ستارك في كتابها (البوابات الجنوبية لشبه الجزيرة العربية ١٩٣٦) أن علوية عبودة، إضافة إلى كونها فقيهة عالمة بأمور الدين، شاعرة شعبية، وفازت بفضل إحدى قصائدها بجائزة (عدة شاي). ويتضمّن كتاب (المرآة الناظرة في السنة الداثرة، ص ١٨٠-١٨٣) خمس قصائد، واحدة لشقيق المؤلفة المؤرخ عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف، وأربع لها، ولا تحمل عناوين، ونرى أنها متواضعة فنيا، باستثناء الثانية منها التي جاء تعبر فيها عن حبها للرسول، وقالت فيها:

بلغ سلامي لمحبوبي وقرة عيوني قل له متى الاجتماع

هل شي دواء عندكم لي با يغمض جفوني من ضوءكم والشعاع

قد أحرقتنا الرماض علكم ترحموني وقتي مضى في ضياع

غرقت في بحر وأهلي فيه قد سيّبوني وغصت في ألف باع

ولقيت درة عجيبة ما رأتها العيوني فيها دواء للوجاع

كذ بايعوني وكادوا بالحسم يغبطوني واستدرجوني خداع

والله والله ما أخرجها لحد من زبوني لو قطعوني رباع

ما جات سهلة بأكل الطيب في البطون إلا بكسر الضلوع

هي لي علامة بها في العالية يدخلوني والزاد لي والمتاع

وأصحاب لي إذا عثرته في الوحل ينقذوني لا الطيبات الوساع

وهذا نص القصيدة الأولى، وتتحدث فيها كذلك عن تعلقها بالرسول:

أبديت بالله عالم بحالي يا با الكرم بالجود آخر وأوّل

تغفر ذنوبي ما لي إلا أنت والي واجعل حلالي في جنانك تحول

ببركة اللي حل ذكره ببالي عشقه مزج لحمي ولعظمي تخلل

أبيت ساهر تمضي الليالي وعيناي تدمع والكرى منهم عل

من فرقة لي مثل روحي وحالي سكران في حبه ولفظي تنضل

دركاه يا محبوب بالوصال فالعشق عند قد طما شد وثقل

والله مالك في الورى مثالي بعزة الله يوم خلقك كمل

أعجزته الوصاف بالمقالي في الخَلِق والخُلق عظيم معظل

يا من بذكره تنطق الرمال والعود يبكي والقوي تذلل

بالله يا محبوب عاك سؤالي خذنا معك لدحقتك خلنا صل

واسقنا من حوضك الزلالي يوم الفزع كل بذنبه تحمل

تمّت وصلى الله بالكمال على النبي المصطفى المبجل

وقام غالب صالح الحامد بنشر مساجلة بين والدة علوية عبودة: نور حمودة، وبنتها علوية، وقد بدأتها الأم قائلة:

يارب تسلم ذا الولد لي ماحد مثيله يجد

وقته زين يومه سعيد

يالله يا نويس الوحيد

التِربَاه مِحنِة وأذى وبغت صبر وبغت مَدى

يا خيّره ولا لش عنيد.

وجاء رد البنت علوية عبودة على النحو الاتي:

باعلمه يأمّه الأدب باشله بقولة عجب

وأن غيّر صلختّه باليد.

وأجابت عليها الأم نور حمودة:

علويه وراها كذا تتكلم علي بالجفاء

شي قولش علي ما يفيد.

ويذكر غالب الحامد أن للحبابة علوية عبودة أبياتا قالتها في زميلتها علوية الحامد، حينما ذهبت إلى تاربة، جاء فيها:

يا من مضى إلى تاربة توّه يبت بالخبر

قولوا لعلوية تعالي شي صحابش فاقدين

ياريت حد بايجيبش غير مابش يَضَر

غير تسحقين النوم وتتفوّهين.

(٦)

مشترحات حضرموت وصوت الخيبعان

إضافة إلى الشاعرات الشعبيات الحضرميات، اللاتي قدّمنا لخمس منهنّ في هذا الكتاب، اشتهر في حضرموت عددٌ من الفنانات الشعبيات اللاتي يغنين في مختلف المناسبات، وبشكل رئيس في الزواجات. وقد قام عدد من الباحثين بالتوثيق لبعض الفنانات الشعبيات اللاتي اشتهرن في ساحل حضرموت. مثلا، قام محمد عمر معدان بتقديم الفنانة الشعبية الراحلة عائشة نصير، وكتب أنها "صالت وجالت في مجال الغناء، وشاع ذكرها وذاع في بداية الخمسينيات من القرن الماضي. وهي من مواليد مدينة المكلا عام ١٩٠٧، ومن أصول شبامية، حسب روايات بعض الأقارب. واحترفت الغناء الشعبي، شعراً وغناء وقرعا ًعلى الطبل والهاجر. وفي ريعان شبابها ظهرت عليها موهبة قرض الشعر والغناء؛ فبدأت حياتها الفنية عام ١٩٣٠ حيث شاع ذكرها وصيتها في الأربعينات، وشكلت مع زوجها الشاعر سعيد بكران ثنائيا فنيا، حيث كانا يتعاونان معاً في كتابة شعر الشروحات النسائية من طرب وزفين وكان صوتها قويا وطويلا ويصل مداه لأعلى السلم الموسيقي. وأسست فرقة مصاحبة لها في الغناء والقرع على الطبل والمراويس".

ويذكر محمد معدان أن عائشة نصيره شاركت في إحياء مراسيم زواج الشاعر حسين أبي بكر المحضار سنة ١٩٥٤ في الشحر، وغنّت، للنساء، في هذه المناسبة قصيدة من تأليفها، قالت فيها:

خرج ذا فصل ياوعل مربعي في حيد تشبي

صانك من الحسد والعين ربي

ورميانك قيام في كل شنطوب

شرع بالغناء في الجبح يانوب

وما زال سركم في القلب مخفي

ومهما حصل منكم ما بايخمي

لفي الساقية ياخير مشروب

شرع بالغناء في الجبح يانوب

ولك يا الحبيب في القلب خانة

ولا بانساك ركنك في مكانه

مكانه حبكم في القلب مرغوب

شرع بالغناء في الجبح يانوب.

ويوماً تنقطع عني الرسالة

عيوني بالدموع دائم ملانة

قرب يا المحب خلاص باتوب

شرع بالغناء في الجبح يانوب .

وقد ظلت هذه القصيدة وصاحبتها عالقتين في ذاكرة المحضار الذي ألف، عند وفاة عائشة نصيره سنة ١٩٧٤، قصيدة رثاء وصفها فيها بـ(شحرورة الوادي)، وغنّاها الفنان الراحل كرامة مرسال، ومطلعها:

تغرد ليش عادك يا البلبل الشادي

سكت مادام سكتت شحرورة الوادي

وودعها بدمعك ويكفيك التغاريد

حمام الروض يبكين بحرقة وحسرة عالعناقيد

نعم سكتت وراحت من دون ميعادي

وبقيت عائشة في خاطري وفؤادي

وفي سمعي نردد ألحانها ترديد

حمام الروض يبكين بحرقة وحسرة عالعناقيد

يذكرني بها صوت الطبل والحادي

وعازف نآي ساعة يعزف وعوادي

ويبكي العود لا غنّت والحسان الغيد

حمام الروض يبكين في حرقة وحسرة عالعناقيد

**

وبالمقابل لم يُقدِم، حسب علمنا، أي باحث على الكتابة عن الفنانات الشعبيات اللاتي اشتهرن في وادي حضرموت، ويُطلق عليهن المشترحات، وأحيانا الفقاعات، مثل الفنانة المرحومة (دويلة)، التي ورث صوتها الاستثنائي ابنها الداعية الخطيب سالم خندور، إمام مسجد عمر حيمد في قرن سيئون الطويلة، والفناة المرحومة (نرجيس)، زوجة مغني الدان المرحوم عوض سالم بارمادة، ووالدة الشاعر المرحوم عمر عوض، والفنانة (رحمه موساه)، التي أشار إليها غالب الحامد، وكتب عنها: "المشترحة رحمه سعيد موسى متعهدة إحياء أفراح الزواجات، جزءٌ من الماضي الجميل في سيئون، كانت هي من تقضب للعروس وتحيي وتسامر وتزف العروس، وكانت ورحمه موساه مضربا للأمثال بين المشترحات؛ فهي تشجو بصوتها الجميل، حاملة الهاجر: (ألفين يامرحبين أربع عراوس ضوين * ألفين يامرحبين فتحوا لهن سدتين)، أو (ثوّر العاشق وقلّه لا تنام الليل كلّه)، رحم اللّه رحمه موساه، كم أحيت من زواجات مدخلة الفرحة في قلوب الناس، وكم كانت أجرتها زهيدة."

**

الخيبعان:

من أهم الأصوات الغنائية التي يرددنها الفنانات الشعبيات (المشترحات) في مراسيم الزواج في حضرموت: الخيبعان، الذي لا يزال منتشرا في بعض مدن وادي حضرموت وقراها .وقد حظي الخيبعان باهتمام عدد من الباحثين، مثل الباحث الأديب عبد القادر محمد الصبان، الذي عرّفه، في كتابه (عادات وتقاليد بالأحقاف)، بأنه "شعر غنائي يعدد أوصاف ومحاسن العروسة وصفات أهلها. وتقوم بإنشاء ذلك الشعر النساء الشاعرات من أهلها وأقاربها أو مستاجرات، وتبتدئ الشاعرة بترديد يا خيبعان يا خيبعان، أو هداني ياهداني النسائية". ويؤكد الصبان أن صوت الخيبعان يردد أولا في (جلسة القراضة) التي تقع الساعة العاشرة من صباح يوم الغسة، "وهي جلسة نسائية يحضرها والد العروس ومحارمها وتبتدئ بوضع الشبح أو الستارة بين النساء والرجال، وتفتتح الجلسة بقرع الطبول، ثم تلاوة الخيبعان في العروسة، ثم يقوم والد العروسة أو جدها أو جدتها بقص شعيرات من أعلى رأس العروسة". ص١٠١

ويؤكد الصبان أن صوت الخيبعان يكرر في (المسامرة) التي تقع مساء ليلة الغسة (أو الحراوة) التي تزّف فيها العروس إلى بيت زوجها، ويكتب "في المسامرة تجتمع النساء في سمرة نسائية طويلة، تبدأ من الساعة التاسعة ليلا وتنتهي عند تحرك العروس

لبيت زوجها، وفي تلك الجلسة يكون الرقص والزفين والشرح واللهو والطرب النسائي المتنوع، وقد يقمن ببعض التمثيليات الهزلية المرحة من وحي الواقع، ويعاد الخيبعان مرة أخرى". ص١٠٢

وكرس المستعرب البريطاني روبيرت سيرجانت للخيبعان أربع صفحات من كتابه (نثر وشعر من حضرموت، ص ١٠٢-١٠٥). وقدم فيها جلسات النساء التي تردد فيها الخيبعان، وذلك على النحو الآتي: "تجتمع النساء في شكل دائرة في إحدى غرف الاستقبال، وتضم الدائرة ثلاث نساء يحملن الطبول، تحمل الكبرى منهن الهاجر، وهي الرئيسة أو الأم لهؤلاء النسوة المعروفات باسم المشترحات. وقبل الزواج تردد المرأة المغنية أبيات الخيبعان حتى تتمكن من حفظها، ويمكن أن تكون منتمية إلى أي طبقة كانت من طبقات المجتمع. ويقمن النساء ويرقصن على الخيبعان بخطوات رتيبة، إلى الأمام ثم إلى الخلف، ثم يتوقفن ليتمايلن بشعرهن كما يفعل المزارعون أو الحرث (البقارة) في الرزيح، ويسمى هذا نعيش. وتسمى هذه الرقصة في الخيبعان زفين.. وعلى الرغم من أن قصيدة ورقصة الخيبعان مضجرتان ومملتان إلا أن مشاهدتهما على الطبيعة شيء جميل كما قيل لي". ص١٠٤

ومن اللافت أن روبيرت سيرجانت، بعكس الصبّان، ربط نظم قصائد الخيبعان بالرجال وليس بالنساء، إذ كتب: "مثل هذا القصائد ينظمها في الغالب شعراء من الرجال، قد يكونون أيضا

من السادة أو المشائخ، لكنهم لا يقرون بنظمه، حتى لا تلحق بهم شائنة". ص١٠٢

وإذا كان الباحث عبد القادر محمد الصبان قد كتب أن الخيبعان، لغةً، تعني دعاء على الحاسد بالخيبة (خيب عائن) اتقاءً من شره، وبواسطته يتم تحصين العروسة في ليلة زفافها، فأن هناك من أجتهد وربط الخيبعان باسم أحد الآلهة التي كانت تعبد في حضرموت". وهناك من قال إن الخيبعان اسم لعائلة كانت تمتهن الرقص والغناء.